رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

رضي الله عنه

طبعها بإذن الورثة مصححا إياها على نسخة المؤلف وجدول وضعه (رح)
لتصحيحها ، ومعلقا عليها تعليقات استفاد بعضها منه في الدرس

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(الطبعة السابعة في سنة ١٣٥٣ وهي كالطبعة التي قبلها في حواشيها)

مطبعة المنار بمصر

فهرس

رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

رضى الله عنه

فهرس رسالة التوحيد

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدمة الناشر

(وضعها للطبعة الثانية ، وزاد عليها في الطبعة السادسة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون

سورة الروم ٣٠ : ٣٠ ــ ٣٢

ان الله جلت قدرته ، و بلغت حكمته ، قد برأ هذا الانسان ، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ،أودع فيه شعورا بلذات وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ، أنشأه مستعدا لادراك معلومات غير محصورة ، إذ خلقه ليحيا حياة دائمة غير محدودة ، جعل مدار حياته على التعاون والاجتماع، ليستعين بذلك على استجلاء ما في الكون من النظام والابداع، أنشأ أفراده متفاوتين في الاستعداد للعلوم والاعمال ، ليتيسر لمجموع النوع القيام بجميع العلوم والاعمال ؟ فأدناهم الخدم والبناءون والزارعون، وأعلاهم

الساسة العادلون ، والحكماء المصلحون، فالأنبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالمشاعر والعقول والقلوب والارواح ، وأولئك كالارجل والايدي والمعد والامعاء ، فمنهم من يقوم للنوع بأدنى مايحتاج اليه، ومنهم من يهديه إلى أعلى مايتشوف استعداده اليه، مع إحسانه التصرف فيما هو قائم عليه ، وهذه الهداية هي هداية الدين الذي هو قوام الفطرة للانسان الناهض بها الى طلب الكمال في العلوم والاعمال

سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدريج في الارتقاء كما هي السنة العامة في جميع شئون الاحياء، حتى ا كمل الله برسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين الاسلام، الذي بلغ بالانسان مرتبة الاستقلال التام ، وبين كتابه أنه دين الفطرة للناس ، من جميع الشعوب والاجناس الموافق لهم في كل مكان ، المنطبق على مصالحهم في كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربي الرحيم ، وللشعوب الراقية كالامام الحكيم، كلما ساروا في العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلي في ميدان السبق (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أقام هذا الدين سلف المسلمين المتبعون، وخذله خلفهم المبتدعون، حتى صاروا حجة عليه عند أكثر العالمين، إذ زينت لهم التقاليد والعادات ، أن يجعلوه حجابا دون العلوم والفنون والصناعات ، وأن يتفرقوا فيه مذاهب وشيعا ، وينقصوا منه سننا ، ويزيدوا عليه بدعا ، وأن يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين أهل المذاهب من الاموات والاحياء ، وقد مرت القرون وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة إلى الاسلام، على الوجه الذي اشترطه علماء الكلام، وهو أن يكون على وجه يحرك إلى النظر، ويدعو إلى البحث والتفكر، حتى قام الاستاذ الامام، الذي كان في هذا العصر حجة الاسلام، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في دار السلام، فكتب (رسالة التوحيد) في بيان حقيقة هذا الدين ، فجاء

مع التزام الشرط اللائق بهذا العصر بما لم يأت بمثله أحد من المتقدمين

لا أذكر في بيان فضل هذه الرسالة أن علم العقائد قد ارتقى في مصر بنشرها ، وتدريس المؤلف في الجامع الازهر لها ، ولا أن علماء الهند ترجموها بلغة الاوردو ليدرسوها في مدرسة عليكرة الكلية ، ولا انها تدرس الآن في الازهر وسائر المعاهد الدينية ، ولا ان بعض المستشرقين ترجموها باللغة الفرنسية وطبعوها ، ولا أن علماء الاقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من منثور الثناء ومنظومه ما يزيد أضعافا على حجمها ، ولا أن بعض علماء النصارى قرظوها ، وبعض أحرارهم تبرعوا بنسخ منها وزعوها ، وان بعضهم قالوا عند ما قرءوها : لو كان ما في هذه الرسالة هو الاسلام لكنا أول من يدخل فيه ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذي نؤمن بفضله ، وعلو كعبه ، وقد شرحت هذا في الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام ، وإنما أقول هنا إنه لا يقدر هذه الرسالة حق قدرها إلا من تدبر القرآن وفهمه ، وأحاط بالسيرة النبوية ونشأة الاسلام وتاريخه ، ووقف على ما طرأ عليه من البدع والاهواء ، وما وصل اليه علم الكلام من الارتقاء ، واطلع على ما كتبه فلاسفة أوربة في الانتقاد على الاديان ، مع ما كتبوه في بيان مزاياها وفي علوم النفس والاخلاق ، والاجتماع البشري والعمران

لم تدع الرسالة شبهة على الدين إلا وكشفتها ، ولا عقدة من عقد المشكلات إلا وحلتها ، ولكن الشبهة تذكر فيها غالبا بطريق الايماء والتلويح ، دون الابانة والتصريح ، وذلك أدنى أن لا يشك الضعيف ، ولا يشتغل القوي عن المقصد الشريف ، وقد أشار إلى ذلك المصنف في فاتحتها بقوله «راميا إلى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد »

ولولا ما ذكره في أولها من الاصطلاحات الكلامية لكان نفعها أكبر ، وإقبال القراء عليها أكثر ، فان أكثر أهل هذا العصر لا يفهمون

تلك الاصطلاحات ، بل أصبحت عندهم من المنفرات ، وقد قلت هذا للمؤلف فاعترف بصحته

أملى الاستاذ الامام جل هذه الرسالة ببيروت في سن الشباب ، ثم أخذ مسودتها من بعض الطلاب ، فزاد في أصلها ، وبادر إلى طبعها ، ثم قرأها في الجامع الازهر على الالوف من العلماء ونجباء المجاورين ، فظهر له فيها أغلاط لغوية ومسائل تحتاج إلى إيضاح. فكان يكتب مايراه من التنقيح والتصحيح في حواشي النسخة التي يقرأ بها الدرس ، ثم جمع جميع ما صححه ونقحه في جدول فكان ذلك في سبعين موضعا أو أكثر ، وبقي كلمات نادرة قد سها عنها ، مع تصحيحه في مواضع أخرى لمثلها ، فنبهت على بعضها في الحواشي مع تصحيحها وتركت باقيها على أصلها ، ولم أزد من عندي إلا عدد السور والآيات في شواهدها

ولما كتب إلي صديقي حموده بك عبده أخو المؤلف يأذن لي باعادة طبع الرسالة أعطاني الجدول فصححت طبعتي معارضة عليه وعلى نسخة المؤلف ، وعلقت عليها حواشي قليلة سمعت بعضها منه في الدرس ، ولولا انه نهى عن شرحها ، ووضع الحواشي لها ، لجاز لي أن أكثر من هذه التعليقات فأجعلها سفراً كبيراً ، ولكن ما رآه رحمه الله هو الصواب ، وما جاء به هو الحكمة وفصل الخطاب

وقد طبعها بعض تجار الكتب بغير حق طبعة رديئة كثيرة الاغلاط ولولم يكن فيها إلا مخالفتها لما صححه ونقحه مؤلفها في سبعين موضعا منها حتى بالزيادة والنقص لكفى في عدم الاعتماد عليها ، فطبعات المنار هي المعتمدة وعليها المعول ، ولا يستغني عنها من طالع الطبعة الاولى ، فرحم الله الاستاذ الامام ، ونفع برسالته الانام . آمين

الناشر

(محمد رشيد رضا الحسيني)

صاحب مجلة المنار

رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

رضي الله عنه

طبعها باذن الورثة مصححا إياها على نسخة المؤلف وجدول وضعه (رح) لتصحيحها، ومعلقا عليها تعليقات استفاد بعضها منه في الدرس

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(الطبعة السابعة في سنة ١٣٥٣ وهي كالطبعة التي قبلها في حواشيها)

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

﴿وبعد﴾ فلما كنت في بيروت من أعمال سورية أيام بعدي عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت في سنة ١٣٠٣ إلى تدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتي على الغرض من إفادة التلامذة، والمطولات تعلو على أفهامهم، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم، فرأيت من الأليق أن أملي عليهم ما هو أمس بحالهم، فكانت أمالي مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم، أقربها إلى كفاية الطالب ما أملي على الفرقة الاولى في أسلوب لا يصعب تناوله، وان لم يعهد تداوله: تمهيد مقدمات، وسير منها إلى المطالب، من غير نظر إلا إلى صحة الدليل، وان جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف، راميًا إلى الخلاف من مكان بعيد، حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد، غير أن تلك الامالي لم تحفظ إلا في دفاتر التلامذة، ولم أستبق لنفسي منها شيئا . وعرض بعد ذلك ما استقدمني إلى مصر، وكان من

تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت ، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، إلى أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسي ، ويصبو اليه عقلي وحسي ، وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد ، علما مني أنه ركن العلم الشديد ، فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الامل ، وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلي ، ما تلقاه بين يدي ، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة اليه ، في إنشاء ما أرى التعويل عليه ، وذكرت ذلك لأخي[1] فأخبرني أنه نسخ ما أملي على الفرقة الاولى . فطلبته وقرأته فاذا هو قريب مما أحب ، قد يحتاج إليه القاصر ، وربما لا يستغنى عنه المكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك في العقائد مسلك السلف ، ولم يعب في سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد مميله عن أعاصير المشاغب ، لكن وجدت فيه إيجازا في بعض المواضع ، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا لبعض ما تمس الحاجة اليه ، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ما أغفل ، وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله في نشره ، راجيا أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره ، أو يغض من قدره ، فما من أحد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان ، والله وحده ولي الامر وهو المستعان

---

١) هو حموده بك عبده وكان تلميذا في المدرسة السلطانية في ذلك العهد

مقدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لاثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب اليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم

اصل معنى التوحيد اعتقاد ان الله واحد لا شريك له. وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو اثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الاكوان، وانه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد (١) وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتي بيانه

---

١) فات الاستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة وهو أن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون الى ما عبدوا معه من الصالحين والاصنام المذكرة بهم، وغير ذلك كالنذور والقرابين تذبح باسمائهم أو عند معابدهم، وهذا التوحيد هو الذي كان أول ما يدعو اليه كل رسول قومه، بقوله (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

وقد يسمى علم الكلام إما لان أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الاولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، وإما لأن مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل، اللهم إلا بعد تقرير الاصول الاولى، ثم الانتقال منها الى ماهو أشبه بالفرع عنها، وإن كان أصلا لما يأتي بعدها، وإما لانه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر، وأبدل المنطق بالكلام (١) للتفرقة بينهما

***

هذا النوع من العلم- علم تقرير العقائد وبيان ماجاء في النبوات- كان معروفا عند الامم قبل الاسلام ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك ، لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على مافي طبيعة الوجود أوما يشتمل عليه نظام الكون، بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض. وكثيراً ماصرح الدين

(١) الصواب : وابدل الكلام بالمنطق . قال في المصباح المنير : وأبدلته بكذا إبدالا نحيت الاول وجعلت الثاني مكانه

على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته. فكان جل ما في علوم الكلام تأويل وتفسير، وإدهاش بالمعجزات، أو إلهاء بالخيالات، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الامم قبل البعثة الاسلامية

جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجا يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه، فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبي ﷺ بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة، بل جعل الدليل (١) في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه، ولو في مثل أقصر سورة منه، وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم، لكن لم يطلب التسليم به، لمجرد أنه جاء بحكايته، ولكنه أقام الدعوى وبرهن (٢) وحكى مذاهب المخالفين

(١) أي الدليل الذي هو العمدة في التحدي وان وجد غيره بل هذا الدليل مركب من عدة ادلة أولها حال النبي في أميته وظهور العلم على لسانه في كهولته، ومنها اعجاز القرآن ببلاغته، واقوى منه إعجازه بما فيه من العلوم الالهية والتشريع والاخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة مما بينه المؤلف في الكلام على نبوة محمد (ص)

(٢) قال فى الاساس: ابره جاء بالبرهان، وبرهن مولد

وكر عليها بالحجة (١) وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الاكوان وما فيها من الإحكام والاتقان على أنظار العقول، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه، حتى انه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخلق سنة لا تغير (٢) وقاعدة لا تتبدل، فقال: (٤٨:٢٣ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وصرح (٣) (١٣ : ١١ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣٠:٣٠ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) واعتضد بالدليل حتى في باب الادب فقال (٤١:٣٤ ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وتآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل

وتقرر بين المسلمين كافة — إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه — ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحى به اليهم،

(١) أي حمل عليها مجالداً لها بالحجة

(٢) تغير بفتح التاء أصله تتغير حذف منه التاء وأثبتها في تتبدل على الأصل ويجوز أن تكون تغير بضم التاء بالبناء للمفعول أي لا يغيرها أحد ولا تتبدل بنفسها (٣) صرح يتعدى بالباء وهنا قدر بعده القول او ضمن معناه

وارادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها . كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل.

جاء القرآن يصف الله بصفات — وان كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الاجيال السابقة — فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو في الجنس (١) كالقدرة والاختيار والسمع والبصر . وعزا اليه أموراً يوجد ما يشبهها في الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين، ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الامر في الثواب والعقاب الى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة.

فاعتبار حكم العقل ، مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل، فسح مجالا للناظرين ، خصوصا ودعوة الدين الى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد، ولا دنو

---

(١) قولان اختار المؤلف في الدرس اولهما .

من التحديد (١)

مضى زمن النبي ﷺ وهو المرجع في الحيرة ، والسراج في ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الاعداء ، وجمع كلمة الاولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ، ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رد اليهما ، وقضى الامر فيه بحكمها ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة ، وأغلب الخلاف كان في فروع الاحكام لا في أصول العقائد. ثم كان الناس في الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ (٢)

(١) الغلو في التجريد مذهب المعطلة منكري الصفات ، والدنو من التحديد مذهب المشبهة ، وبينهما مذهب السلف الوسط ، وهو أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، ويقرب منه مذهب متكلمي الخلف الذين يمنعون التعطيل والتمثيل ، دون التأويل لبعض الصفات والافعال

(٢) التحقيق أن السلف كانوا يأخذون في الصفات الالهية بمعاني الالفاظ في اللغة مع تنزيهه تعالى عن مشابهة شيء من خلقه فكما أن ذاته ليست كغيرها من الذوات فكذلك صفاته وأفعاله ، ولا يذهبون إلى ما وراء ذلك من لوازم ظاهر اللفظ كالتشبيه والتحديد المأخوذ من اطلاقه في الاصل على المخلوق فان التنزيه قد جعل المشاركة في اللفظ إسمية أو جنسية لا شخصية كما تقدم في الصفحة السابقة

كان الامر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله . هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها ، وبقي القرآن قائما على صراطه (١) (١٥ : ٩ انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم ، وتغلب هؤلاء واولئك على اهل الاصالة منهم ، فقضيت امور على غير ما يحبون

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودي أسلم وغلا في حب علي كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه (٢)

---

(١) أي وقعت الصدمة على الاسلام وعلى أهله الذين أحدثوا فيه فأثرت فيهم ولم تؤثر في القرآن الذي كفل الله حفظه فبقي حجة عليهم

(٢) ان ابن سبأ فعل ما فعل بغضا في الاسلام لاحبا في علي ، فاسلامه كان خديعة وله نظراء في ذلك من اليهود ، ومثلهم بعض مجوس الفرس الذين أظهروا الاسلام ، وتستروا بالتشيع لعلي ولآل البيت عليهم السلام ، كلهم كانوا يقصدون إفساد الاسلام وإزالة ملكه بالتفريق بين أهله ، وأشار المصنف إلى ذلك فيما ترى في ص ١٥

وأخذ يدعو إلى أنه الاحق بالخلافة ، وطعن على عثمان فنفاه، فذهب إلى البصرة وبث فيها فتنته ، فأخرج منها فذهب إلى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة، فنفي منها فذهب إلى الشام فلم يجد فيها ما يريد ، فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته ، إلى أن كان ما كان مما ذكرناه ، ثم ظهر بمذهبه في عهد علي فنفاه إلى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الاحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الامويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، وأخذ الاحزاب في تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل، وغلا كل قبيل، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم ، وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلا ، إلى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيراً من المسلمين، وانتشرت فارّتهم في أطراف البلاد، ولم يكفوا عن إشعال الفتن ، وبقيت منهم بقية إلى اليوم في أطراف أفريقيا

وناحية من جزيرة العرب (١) وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الالوهية أو ما يقرب منه (٢) وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد

(١) إنه يعني بهذه البقية : الاباضية الذين في طرابلس الغرب وصحراء الجزائر وزنجبار من افريقية، وفي عمان من جزيرة العرب، ولكن الاباضية يتبرءون من الخوارج الذين يكفرون من يخالفهم كالصفرية والازارقة ، ويفرقون بين الكفر المخرج من الملة كالشرك وما دونه من الفسق ، ويقولون بالامامة ، ولكن لهم تشديداً في قاعدة الولاية والبراءة فيتولون الشيخين وجميع الصحابة الذين كانوا قبل خروج الناس على عثمان وما أنكر عليه الصحابة (رض) وفتنة علي ومعاوية ويقولون إن عليا هو الامام الحق وإن معاوية كان باغيا بخروجه عليه ولذلك يخطئون عليا في قبول التحكيم في الامر وهو يعلم أنه صاحب الحق . ولهم فيمن قبلوا التحكيم ثلاثة أقوال : البراءة منهم والوقف فيهم وثالثها الولاية لهم كسائر الصحابة وهو قول أهل السنة . وهم في تأويل آيات الصفات وأحاديثها بين الاشاعرة والمعتزلة. وأما العمل بالاوامر والنواهي فهم أشد الفرق الاسلامية اذعانا وطاعة لها كالوهابية من أهل السنة لا يكاد يوجد في بلادهما تارك صلاة أو مانع زكاة أو مجاهر بكبيرة.

(٢) منهم الذين رفعوه إلى الالوهية وحده ، ومنهم من جعلوها موروثة في بعض ذريته وهم الباطنية ومنهم من قالوا بعصمته وعصمة بعض أفراد ذريته، وغلوا فيهم على درجات مختلفة

غير أن شيئاً من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الاسلامية ،ولم يحجب ضياء القرآن عن الاطراف المتنائية عن مثار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم ،واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الاسلام، وآن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والاحكام ،بما هداهم اليه سير القرآن ،اشتغالا يحرص فيه على النقل، ولا يهمل فيه اعتبار العقل ،ولا يغض فيه من نظر الفكر، ووجد من أهل الاخلاص من انتدب للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم، ومن أشهرهم الحسن البصري فكان له مجلس للتعليم والافادة في البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع، وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة، دخلوه حاملين لما كان عندهم ،راغبين أن يصلوا بينه وبين ماوجدوه، فثارت الشبهات بعد ماهبت على الناس أعاصير الفتن، واعتمد كل ناظر على ماصرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء،من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رءوس المشاقين ، تعلو بين المسلمين

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة

ولم يتب . اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصري واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن — على قول — كان على رأي أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته [١] وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الانسان في عمله الارادي كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية ، كل ذلك وأرباب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالامر ، ولا يعنون برد الناس إلى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ماشاء ، سوى أن عمر بن عبد العزيز أمر الزهري بتدوين ماوصل اليه من الحديث [٢] وهو أول من جمع الحديث

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين بل امتد إلى إثبات صفات المعاني للذات الالهية أو نفيها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الاحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلواً في تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالاصول الاولى — على ما سبق بيانه — ثم غالى آخرون وهم الاقلون فمحوها

(١) بل كان جمهور السلف على هذا وتبعهم أكثر أهل الحديث

(٢) الصواب أنه أمر بذلك أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وأمله محمد بن مسلم بن شهاب الزهري فكان يكتب السنن والآثار من تلقاء نفسه

بالمرة ، وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب عناداً للاولين ، وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد كأنها مبنى من مباني الاعتقاد الاسلامي

تفرقت السبل بأتباع واصل (١) وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا إلى أوليات العقل ، وما كان سرابا في نظر الوهم ، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ،وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين

عرف الاولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الامويين ، واعتمدوا على طلب الانصار فيهم ، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ـ فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء . وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم

(١) هم المعتزلة

ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الالحاد ، وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وإبطال مزاعمهم

فيما حوالي هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر في الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك ، وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته[1] وانتصر للاول جمع من خلفاء العباسيين، وأمسك عن القول أو صرح بالازلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة، وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق . وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين

---

(١) التحقيق ان كلا من القولين مبتدع فوصف القرآن بالقدم والازلية لا أصل له من الكتاب والسنة ولم يقل به أحد من الصحابة ولا التابعين ولكنه بني على نظرية في الرد على مبتدعي القول بخلقه من منكري صفات الله عز وجل وهي ان القرآن كلام الله فهو صفة من صفاته الازلية ، ومن ثم صار القول بقدمه من اصطلاح متكلمي أهل السنة ، وأنصار السلف من اهل الحديث ينكرون على متكلمي الاشاعرة أقوالهم في الكلام النفسي واللفظي ، وهي فلسفة ليتها لم تكن ، وانظر حاشيتنا الآتية على صفة الكلام

على هذا كان النزاع بين ماتطرف من نظر العقل ، وماتوسط او غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الاحكام الدينية واجبة الاتباع : ما تعلق منهابالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، ومامس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه ، وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول او الدهريين طلبوا أن يحملو القرآن على ماحملوه عند التحافهم بالاسلام، وأفرطوا في التأويل،وحولوا كل عمل ظاهر الى سر باطن ، وفسروا الكتاب ، بما يبعد عن تناول الخطاب ، بعد الخطأ عن الصواب ، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم اسماء أخر تعرف في التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين، وزلزال اليقين، وكانت لهم فتن معروفة، وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان امر الخلاف بينهم جللا ، وكانت الايام بينهم دولا ، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض ، واستفادة كل فريق من صاحبه ، الى ان جاء الشيخ ابو الحسن الاشعري في أوائل القرن الرابع (١) وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وتطرّف من

(١) ولد سنة ٢٧٠ وقيل ٢٦٠ وتوفي سنة ٣٣٠ ونيف وقيل ٣٢٤

خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على اصول النظر، وارتاب في أمره الاولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه . ونصره جماعة من اكابر العلماء كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين والاسفرايني وغيرهم (١) وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة (٢) فانهزم من بين أيدي هؤلاء الافاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين في الجري خلف ماتزينه الخواطر . ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين الا فئات قليلة في أطراف البلاد الاسلامية .

غير أن الناصرين لمذهب الاشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد ان يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي اليه من عقائد الايمان ، ذهاباً منهم الى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول ، ومضى الأمر على

(١) أي نصره هؤلاء بعد موته (٢) راجت هذه التسمية بعلو جاه هؤلاء النظار عند الخلفاء والامراء وكثرة اتباعهم من العلماء، وقد كان الاشعري معتزليا فرجع الى مذهب أهل السنة في اهم مسائل الخلاف بينهم وبين المعتزلة ثم انتهى إلى مذهب السلف من كل وجه وصرح باتباع الامام احمد بن حنبل، كما ترى في كتابه الابانة . وكذلك كبار النظار من انصاره كامام الحرمين وقبله والده الامام الجويني وبعدهما الغزالي ثم الرازي

ذلك الى أن جاء الامام الغزالي والامام الرازي ومن أخذ مأخذهما فخالفوهم في ذلك ، وقرروا أن دليلا واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر في الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول ، أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاؤا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ، ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم ، وإفادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشري بما يكشفون من مساتير الاسرار المكنونة في ضمائر الكون ، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا في قوله (٢ : ٢٩ خلق لكم ما في الارض جميعا) إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفيا . وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في سبيلهم الى ما هدوا اليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل ، وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي اليه أمر السعادة ، والتمييز بين الحق والباطل ، والضار والنافع ، وبعد ما صح من قوله عليه السلام «أنتم أعلم بشئون دنياكم» (١) وبعد ما سن لنا في غزوة بدر من سنة

(١) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة بلفظ «بأمر دنياكم»

الاخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم (الاول) الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا ارسطو وافلاطون ، ووجدان اللذة في تقليدهما لبادىء الامر (والثاني) الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت وهو أشأم الامرين : زجوا بأنفسهم(١) في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين ، واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة (٢) فمال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الامور العامة وأحكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مباني الدين واشتدوا في نقده . وبالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى

(١) استئناف لبيان ثاني الامرين وكونه اشأمهما حاصله ان الفلاسفة لو لم يخلطوا فنونهم بالدين ويزجوا بأنفسهم في المنازعات الدينية لتركوا وشأنهم في البحث واذاً لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران . ذكره المؤلف في الدرس وكان من رأيه انه يجب ألا تمزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية

(٢) أي اصطدموا مصاحبين لعلومهم بما انطبعت عليه انفس الجمهور من المنازعات الدينية

كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتدال ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبذتهم العامة، ولم تحتفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما تراه في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم(١) وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الاجيال المختلفة، وتغلب الجهال على الامر ، وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الاسلامي ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الالفاظ أو تناظر في الاساليب ، على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور(٢)

---

(١) الظاهر أن يقال وغيرهما اي الكتب، او غيرهما اي البيضاوي والعضد، ولعله كان ذكر غيرهما فسقط من النسخ ولا اذكر انه صححه في الدرس ولم اجده في الجدول الذي صحح ونقح به الطبعة الاولى

(٢) يعني ان المتأخرين اساؤا في اختيار كتب من قبلهم وكانت طريقتهم في التدريس البحث في الفاظها واساليبها ، دون تحرير مسائل العلم وتحقيقها ، وكان يقول فيهم انهم يتعلمون كتبا لا علما

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم . فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله . غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا . فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا في التضليل والتكفير ، وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين . وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام، وهذا كفر وهذا إسلام . والدين من وراء ما يتوهمون ، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون(١) ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ شر عظيم ، وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم(٢) ينبئك كيف أسس على قواعد

(١) راجع ترجمة الاشعري في الطبقات الكبرى للسبكي

(٢) فات المؤلف ان يذكر في هذه الخلاصة التاريخية انه بعد ان استفحل سلطان الاشعرية في القرون الوسطى وضعف اهل الحديث ومتبعو السلف ظهر في القرن الثامن المجدد العظيم شيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية الذي لم يأت الزمان له بنظير في الجمع بين العلوم النقلية والعقلية وقوة الحجة فنصر مذهب السلف على المذاهب الكلامية كلها ببرها ني العقل والنقل، وقد أحيت مصر والهند كتبه وكتب تلميذه الاكبر العلامة ابن القيم بعد ان كان الاهتداء بها محصورا في بلاد نجد، وهي الآن تعم الشرق والغرب، وستكون عمدة جميع مسلمي الارض

من الكتاب المبين، وكيف عبثت به في نهاية الامر أيدي المفرقين، حتى خرجوا به عن قصده، وبعدوا به عن حده

والذي علينا اعتقاده أن الدين الاسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزغات شياطين، وشهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه في صوابه وخطله

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل، لا استرسالا مع التقليد، حسبما أرشدنا اليه الكتاب، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه، تحصيلا لليقين بما هدانا اليه، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الامم في الاخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم، وامحاء وجودهم الملي، وحق ما قال، فان التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان، ولا تجمل بحال الانسان

اقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام : ممكن لذاته ، وواجب لذاته ، ومستحيل لذاته (١) ويعرّفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي ، والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته وإنما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده . وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره ـ وإطلاق

(١) هذه القسمة عقلية وهي للحصر لان مايتعلق به العلم إما ثابت قطعا لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب ، وإما ضده وهو المستحيل وإما واسطة بينهما وهوما لا تقتضي ذاته الثبوت ولا الانتفاء بل يجوز لها الامران بحسب العلل وهو الممكن . فمعنى كون الشيء ممكنا أو مستحيلا أو واجبا لذاته هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته أي إن ذاته إذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن إلا كذلك ، والمراد بالامكان والوجوب والاستحالة ما كان كذلك بحكم العقل القاطع لا العادة ، فمثال المستحيل إجتماع النقيضين ككون الشيء موجوداً معدوما في آن واحد أي موجوداً غير موجود فهذا معلوم ـ أي متعلق للعلم ـ يجزم العقل بعدمه أي عدم تحققه لذاته ، أي إن ذاته لا يمكن أن تكون ثابتة ، وليس منه مشي الانسان على الماء ، أو طيرانه في الهواء ، وإنما هذا مستحيل عادة ، ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للاربعة فانك لا يمكنك أن تتصور العدم المحض ولا كون الاربعة ليست زوجا ، ومثال الممكن ظاهر فان جميع هذه الموجودات التي ندركها بحواسنا ممكنة الوجود كما يعلم مما يأتي في الرسالة .

المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه ، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته (١) من حيث هي فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم

(١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشيء هو هو ، ونوضح ذلك بقولنا إن ماهية الشيء ترادف حقيقته في الجملة ، مثال ذلك أن ما يتصوره الذهن من معنى الانسانية الكلي الذي يوجد في كل إنسان غير مصاب بعلة ككونه حيوانا ناطقا عاقلا يسمى ماهية الانسان وحقيقته ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار فما يتعلق في الذهن من معنى الشيء الذي تتقوم به ذاته ويجاب به إذا سئل عنه بما هو ذلك الشيء ؟ يسمى ماهية وإنما يسمى حقيقة أو ذاتا باعتبار تحققه في الواقع ولذلك يطلق لفظ الماهية على ما لا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة ، ولازم الشيء ما لا ينفك عنه كلزوم الانقسام إلى متساويين للزوج

وكلمة الماهية وتفسيرها والسؤال عن الشيء بما هو وما خصوه به واشترطوه في جوابه كل ذلك من اصطلاح علم المنطق لا من أصل اللغة . فالعرب تقول ما كذا ؟ لا ما هو كذا ، وقد يجيبون عنه بأي صفة تميز الشيء المسؤل عنه عن غيره

الماهية من حيث هي عنها ، وهو يؤدي إلى سلب الماهية عن نفسها (١) بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعا ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة[٢] كما أشرنا اليه ، فهو ليس بموجود لا في الخارج ولا في الذهن

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب ، وذلك لانه لا واحد من الامرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء . فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد

---

(١) قال المؤلف إن هذا من القضايا التي قياساتها معها ، لان سلب اللازم إنما يكون بسلب الملزوم وهو كون الماهية هي ، أي فهو كسلب الانقسام إلى متساويين عن عدد الزوج وهو نفي لكونه زوجا فكأنك قلت إنه زوج غير زوج

(٢) يريد بهذا أن ما ذكر من ماهية المستحيل هو أمر اعتباري أو فرضي يخترعه العقل لاجل الحكاية عنه كما تقدم في الرسالة قريبا لا لان له تحققا في نفسه فالحق أن المستحيل ليس له ماهية ثابتة في الذهن ولا حقيقة في الخارج ، أما الثاني فلان ما في الخارج هو الموجود بالفعل والمستحيل لا يوجد ، وأما الاول فلان ما في الذهن لا يكون إلا صورة لما في الخارج منه ولذلك قال فهو ليس بموجود الخ أي بل هو أمر فرضي أو اعتباري

المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة(١)

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثا لانه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب ، فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والاول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة وهو إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدي إلى خلاف المفروض ، والثاني كذلك وإلا لزم تساويهما في رتبة الوجود(٢) فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحا بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة ، فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون مسبوقا بالعدم في

(١) أي لانه جمع بين النقيضين إذ معناه أنهما متساويان غير متساويين في آن واحد فهو من القضايا التي قياساتها معها

(٢) أي إن وجوده قبل سببه يؤدي إلى الجمع بين النقيضين وهو كونه أي الممكن محتاجا في وجوده إلى السبب غير محتاج اليه . وقوله : والثاني كذلك ظاهر فان وجود الشيء مع وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضي أن ما فرض سببا لا يكون سببا وأن الممكن محتاج إلى السبب غير محتاج إليه وهو تناقض ظاهر ، وقوله : وإلا لزم تساويهما في رتبة الوجود . مثاله أن يوجد الاب والابن أي يولدا في وقت واحد ومن البديهي أن الشخصين اللذين يولدان في وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أبا والآخر ابنا

مرتبة وجود السبب ، فيكون حادثا إذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم — فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج في عدمه إلى سبب وجودي لان العدم سلب، والسلب لا يحتاج إلى إيجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سببا في بقائه ، أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودي ضرورة ، لان العدم لا يكون مصدراً للوجود، فالموجود إن حدث فانما يكون حدوثه بايجاد ، وذلك كله بديهي

كما يحتاج الممكن الى السبب في وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضي الوجود ، ولا يرجح لها الوجود عن العدم[1] إلا للسبب الخارجي الوجودي ، فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هي ، فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته ، فيكون في جميع أحواله محتاجا إلى مرجح الوجود عن العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الايجاد ومعطي الوجود وهو الذي يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقي ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ، ولا تتباين معانيها ، وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذي يهيء الممكن لقبول الايجاد من موجده . وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه في الابتداء

(١) هذا تعبير كلامي لبعضهم . والترجيح يتعدى بعلى

ويستغني عنه في البقاء ، وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه، ومن هذا القبيل وجود البنّاء فانه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه . وليس البنّاء واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به

وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء : فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الاولى ، فان الاولى ليست واهبة الوجود للثانية والا وجب وجودها معها ، مع أن الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الاولى . وأما استفادة الوجود فتقتضي سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كأشخاص النباتات والحيوانات : فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة . لا سبيل الى الاول لان المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا الى الثاني لان الواجب له الوجود(١) من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجيء في أحكام الواجب فهي ممكنة ، فالممكن موجود قطعاً

(١) قوله «له الوجود من ذاته» جملة هي خبر أن

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها، فاما أن يكون عينها وهومحال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه ، وإما أن يكون جزأها وهومحال لاستلزامه أن يكون الشيء سببًا لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الاول، ولنفسه فقط إن فرض أوله وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب ، والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود[1]

وأيضا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لاشيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود ،فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

(١) هذه هي نتيجة تلك المقدمات كلها وملخصها أن المستحيل لا يوجد والممكن موجود بالفعل و يوجد دائما ووجوده يدل على وجود الواجب قطعا لانه هو الذي يعطيه الوجود إذ لا وجود له من ذاته

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديمًا أزليا لانه لو لم يكن كذلك لكان حادثا ، والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم ، وكل ما سبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا في وجوده إلى موجد غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون مافرض واجبا واجبا وهو تناقض محال . ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم والا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركبا إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجود جملته محتاجا إلى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته . ولانه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه وقد قلنا إنه لذاته من حيث هي ذاته ولانه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية (١) أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب فان الاجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع في الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج والا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق (٢) لا حقيقة

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة (٣) في أحد الامتدادات الثلاث أي لا يكون له امتداد لانه لو قبل القسمة لعادها الى غير وجوده الاول وصار الى وجودات متعددة وهي وجودات الاجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

(١) قوله حقيقة عقلية مبني على القول بها على سبيل التوضيح وإلا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له وقد نفاها المؤلف في الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة إلا إدراكها أي الصور التي ينتزعها الذهن من الوجود الخارجي، وبين في درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون في الوجود العقلي ومذهب ارسطو في كون الصور الذهنية هي حقائق هذه الموجودات الخارجية

(٢) قوله اعتبارا الخ خبر كان أي تصورا مخترعا لا يصدق على شيء في الواقع . والعبارة عرفية منطقية ، لا عربية فصيحة .

(٣) سئل المؤلف في الدرس هل يصدق ذلك بالجوهر الفرد بالمعنى الذي يقولونه وهو أنه لا يقبل القسمة فعلا ولا عقلا ولا وهما ؟ فقال إن الجوهر الفرد بهذا المعنى لا حقيقة له ونحن نحمل كلام من يقول بالجوهر الفرد على الجزء الذى لا ينقسم فعلا لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعا اه والموضوع كله من نظريات الفلسفة القديمة الباطلة

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار . وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ماهو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره والا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها

ما يتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر . وأكمل مثال في أي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش . فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وان في النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال

فان تجلت النفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها، وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها . فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا، وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار

والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له(١) وكونه مصدراً للنظام وتصريف الاعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا ، فيجب أن يكون ذلك ثابتا له: فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة، وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة، فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة(٢) وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة ، فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الواجب، وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود حي وان باينت حياته حياة الممكنات فان ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والارادة . ولو لم تثبت له هذه الصفة (٣) لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً . وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه .

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها

---

(١) لشيخ الاسلام بن تيمية رسالة بديعة في إثبات اتصافه تعالى بكل كمال وهي فى الجزء الخامس من مجموعة رسائله المطبوعة فى مطبعة المنار (٢) دليل فيه إضمار تقديره وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودي فالحياة كمال وجودي

(٣) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود ، وقوله بعده « والواجب هو واهب الوجود » دليل ثالث :

العلم

ومما يجب له صفة العلم . ويراد به ما به انكشاف شيء عندمن ثبتت له تلك الصفة أي مصدر ذلك الانكشاف منه (١) لان العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالا في الوجود ويمكن(٢)أن تكون للواجب،وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له،فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم،فلو لم يكن الواجب عالما لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا . ثم هو واهب العلم في عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده(٣)

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات(٤)فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه ، فيكون محيطا

---

١) بيان لمعني العلم في اللغة وسنذكر معني علمه تعالى في حاشية صفحة ٤٥ (٢) كتب المصنف في حاشيـة نسخة الدرس هنا أي بالامكان العام (٣) وكتب هنا : العلم كمال والناقص الفاقد الكمال لا يمكنه أن يهب كمالا بالضرورة ، وأما الصفات التي لا تعد كمالا ولا نقصا وهي من خواص الماهيات كالحرارة فليست من هـذا القبيل «فيمكن» هبتها مع فقدها اه (٤) هكذا اختلفت تعدية العلو بعلى وعن والعبارة في معنى قول السلف بعلوه تعالى فوق جملة خلقه بائنا منهم (والله من ورائهم محيط)

بكل ما يمكن علمه ، وإلا تصور العقل علما أشمل ، وهو إنما يكون لوجود أكمل ، وهو محال

ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه(١)ويبقى ببقائه ، وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر إلى شيء ما وراء ذاته،فهو أزلي أبدي غني عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر،فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم وإلا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ، ووضع كل شيء في موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها ، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها ، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية — كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

(١) غني بالشيء اكتفى به واستغنى به عن غيره . وفي الطبعة الخامسة بفنائه بالفاء وهو غلط بالطبع وباطل بالعقل والشرع

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ماتحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها، وإبداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لايلائمه . فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمي بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذي المر الزعاق ، وهذه تتناول مايغذو حلو المذاق ، وإرشاد الحساس منها الى استعمال مامنح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ماقدرت له . فهو الذي يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله الى الايدي والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ، ويقيه من العوادي عليه . وحاجته إلى المعدة والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التي لاغنى عنها في النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص أو للنوع .

هو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا وانها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء(١) كثيرة وغير ذلك مما لا يستطاع

١) الأجراء جمع جرو ، والأطباء جمع طبي بالكسر وهي حلمات الضرع

إحصاؤه . وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان ومايسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه . على أن الباحثين في كل ذلك بعد مابذلوا من الجهد وماصرفوا من الهمم وما كشفوا من الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هذا الصنيع الذي انما تتفاضل العقول في فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء ؟ الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة (١) أن يكون ينبوعا لهذا النظام ؟ وواضعاً لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها؟ كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم

---

(١) الصدفة كلمة استعملها المولدون ولم تعرف عن العرب وقد استبدل بها المؤلف في تصحيح خطبة شرحه انهج البلاغة لفظ المصادفة وتركها هنا سهواً أومراده المسمى في عرف الناس بالصدفة

الارادة

مما يجب لواجب الوجود الارادة . وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة(١)

بعد ماثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن مايوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لانه انما يفعل على حسب علمه . ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان . وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للارادة إلا هذا

أما مايعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصد وأن يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص في العلم . فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

---

(١) يعني الوجوه المتقابلة التي لاتجتمع كما يعلم مما يأتي

القدرة

ومما يجب له القدرة وهي صفة بها الايجاد والاعدام. ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته فلا ريب يكون قادراً بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار إذ لا معنى له الا إصدار الاثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار، ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا ارادة. وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة. تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً. ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها. فالكمال في الكون انما هو تابع لكمال المكون. واتقان الابداع انما هو

مظهر لسمو مرتبة المبدع . وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (٢٣ : ١١٥ أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون؟) وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ، ولكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكم ، وإن خفي شيء من حكمتها عن الانظار(١)

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا: أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجا وعقلا . وأما الوحدة في الصفة أي أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات فهي ثابتة

(١) قد تخفى حكمة الشيء عن البشر زمنا طويلا ثم تظهر كما ثبت كثيراً وصفة الاختيار تبطل قول القائلين بأن العالم كالآلة الميكانيكية

لانه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة . لان الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة. فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الاخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها.

هذا التخالف ذاتي لان علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق، وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد في عامة الممكنات فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته، ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الاخرى، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإراداتهم، فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل

وجود ممكن من الممكنات ، لان وجود كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال - فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا(١) لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته ، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله.

---

(١) تقرير لكون قوله تعالى (٢١:٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) برهانا قطعيا لا دليلا إقناعيا كما زعم من لم يفهم الآية والمراد بقوله فيهما السموات والارض المذكورتان في آية سابقة قريبة

وهذا الوجه من التوحيد قد ضل فيه بعض البشر فزعموا أن للخير والنور إلها وللشر والظلمة إلها وقال آخرون بعدة أرباب تعبد. وما قبله بحث فلسفي في الوحدة قلما يحتاج اليه أحد في هذا العصر ولا سيا نفي التركيب في الذات إلا إذا عد منه التثليث عند النصارى وبعض الهندوس وذلك غير ظاهر . وسكت هنا عن التوحيد الاعظم الذي تدل عليه كلمة لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره ، لان هذا بحث كلامي فلسفي ولكنه تكلم عليه في مواضع أخرى كالكلام في أفعال العباد وفي الكلام عما جاء به الاسلام بعد بحث الرسالة العامة

الصفات السمعية

التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد ﷺ ولسان من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدي اليه النظر وحده (١) ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه

---

(١) فيه أن النظر العقلي قد اهتدى اليه و بناه على القاعدة التي أشار اليها في الكلام على صفة الحياة وهي أن كل كمال وجودي محض يجب أن يتصف به واجب الوجود، وفصله ابن تيمية برسالة خاصة

سبحانه لا بد أن يكون شأنا من شئونه قديما بقدمه (١)

(١) إن الله تعالى جعل للناس طرقا عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسبا فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم، واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم و يفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم فالعلم هو القوة أو الصفة التي تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب. وفيها قوة أخرى تتصرف بها في المعلومات وتصورها بصور قابلة لاعلام قابل العلم بها، فبها يتمكن الانسان من إفادة غيره ماشاء من علمه وهي صفة الكلام، فما كان منه في النفس يسمى كلاما نفسيا و يعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت في نفسي كذا وحدثتني نفسي وقال عمر يوم السقيفة: زورت في نفسي كلاما ـ وما تحصل به الافادة والاعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرهما و يوجه إلى من يراد إعلامه به فيعلمه يسمى كلاما لفظيا، وقد استعير لفظ العلم الذي يستعمله البشر في أنفسهم للعلم الالهي المحيط بكل شيء، واستعير لفظ الكلام للشأن الالهي الذي به يوحي الله إلى ملائكته ورسله ماشاء من العلم و يكلم من شاء وحيا من وراء حجاب، فقيل إن لله كلاما هو صفة له أي شأن من شئونه هو مصدر الوحي و إفادة العلم للانبياء والملائكة، وسمي ما يوحيه اليهم كلاما أيضا. وليس في اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل في كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله النفسي عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم، فالكلام النفسي صورة للعلم الذاتي في النفس كما أن العلم صورة للمعلوم فيها. ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه، فكلام الله صفة ذاتية له تتعلق بكل ما في علمه و يكشف ماشاء من علمه لمن شاء من خلقه وهو التكليم. كما أن علمه صفة ذاتية له تتعلق بكل شيء تعلق انكشاف وادراك من غير سبق خفاء، فالكلام كمال وجودي محض لو لم يكن الخالق متصفا به لكان ناقصا (سبحانه) بفقده في الازل له، ولكان غيره من =

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهي ما به تنكشف المبصرات

= الموجودات كالانسان أكمل منه على ما سبق بيانه في صفة الحياة تعالى الله عن ذلك. فالكلام هو الوصف الفاصل بين الانسان والحيوان وقد احتج الله على بطلان ألوهية عجل بني اسرائيل بقوله (أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا * ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) وانما الاله الحق هو الذي يملك هدايتهم بكلامه وضرهم ونفعهم بقدرته ، ولو خلق الله تعالى في نفس الملك أو النبي علما بما أراد اعلامه به لم يكن صادرا عن كلامه النفسي ومرآة له لما صح أن يسمى هذا العلم كلاما لله تعالى ، كما أن سائر علوم الخلق الضرورية التي لا كسب لهم فيها من خلقه تعالى ولا تسمى كلاما له . وكذلك الكسبية بالاولى

هذا وان لايحاء كلامه تعالى الى الملائكة صورة روحية غير الصورة التي يوحيها الملك للرسول من البشر، والرسول يبلغها للناس بصورة أخرى هي كلامهم اللفظي، والمعنى للكل الذى هو العلم الذى أراد الله تعالى اظهارهم عليه واحد لا يتغير باختلاف صوره ولا يصح أن يعزى الى غيره

فالشاعر الذي علم ان كل شيء ما خلا الله باطل (لانه لا وجود له ولا بقاء بذاته لذاته) وان كل نعيم في الدنيا زائل، وتمثل له هذا المعنى بقوله

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قد نطق بهذا البيت بلفظه ، بعد أن تمثل في نفسه، ثم تناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم قرنا بعد قرن ، وكلهم يعزونه اليه وانه من كلامه ، وأن النطق به وكتابته الآن لا ينفي أنه كلام له قيل منذ بضعة عشر قرنا ـ فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذي أوحاه الى محمد رسوله (ص) صادراً عن كلامه النفسي ، وأن حدوث الوحي به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة وتلاوته بالالسنة وكتابته وطبعه في المصاحف قرنا بعد قرن لا ينافي كونه هو كلامه وأنه قديم =

وصفة السمع وهي ما به تنكشف المسموعات ، فهو السميع البصير.

= بقدمه، على أن السلف لم يقولوا انه قديم لان نص الشارع لم يرد به، وقد أغلظوا النكير على من قالوا انه مخلوق وحادث بشبهة حدوث ايحائه وتنزيله وتلاوته، لان الحامل لهم عليه انكار صفات الله تعالى جملة وتفصيلا بشبهة استلزام اثباتها لتعدد القدماء ، وهي نظرية فلسفية مخترعة باطلة وضعوها وحكموها في صفات الله تعالى وكلامه المنزل. غلوا في التنزيه انتهى بهم الى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود وكذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم ، وانما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال الوجودية ومنها الكلام والتكليم ، بغير تعطيل ولا تمثيل

وقد اهتدى البشر إلى بيان مافي أنفسهم من الكلام لمن يريدون إعلامه بمعناه بطريقة سريعة خفية يكلم بها المرء غيره وهو يبعد عنه ألوفا من الاميال بلاصوت ، وذلك مايعرف بالتلغراف السلكي واللاسلكي ، وما يؤدى به يسمى كلاما أيضا ، فهذا أظهر مثال يضرب للوحي ، وتنزيه كلام الله عن مشابهة كلام الخلق ، ثم اهتدوا الى اختراع آلة أخرى تنقل الاصوات والكلام من قطر الى قطر وان بعدت المسافات. سموها الراديو وسميناها المذياع

وقد حذفنا من هذا الموضع نحو صفحة من الرسالة في مسألة الخلاف في خلق القرآن عملا بأمر المؤلف إذ كتب بخطه في طرة نسخته مانصه : (في الطبعة الثانية يحذف القول في خلق القرآن) وبين لنا السبب في ذلك في الدرس فقال إنه التزم في الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التي ليست من مذهبهم وكان الذي ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رح) فأذعن وذكر ذلك في الدرس وقد نوهنا بذلك في مقالة للمنار عنوانها (سجايا العلماء) وما شرحناه تصوير للحقيقة المثبتة لمذهب السلف الداحضة لبدعة المعتزلة بما يقبله العقل والوجدان السليمان ولله الحمد

لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا(١)

كلام في الصفات اجمالا

أبتدىء الكلام فيما أقصد بذكر حديث ان لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا »(٢)

(١) وكذلك علمه تعالى ليس بآلة الدماغ ولا بوجدان القلب

(٢) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الاحياء رواه ابو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر. قلت فيه الوازع بن نافع متروك اه زاد الزبيدي في الشرح : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن ابي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة والطبراني في الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والاصبهاني وأبو نصر في الابانة وقال غريب ورواه ابو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث ابي هريرة « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد اه

هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان أو وجدانا أو تعقلا، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها . وتحصيل كليات لأنواعها ، والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . وأما الوصول الى كنه(١) حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته . لان اكتناه المركبات(٢) انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره :

خذ أظهر الاشياء وأجلاها كالضوء، قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها في علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو

(١) كنه الشيء جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الكنه هي معرفة الاحاطة التي ليس وراءها غاية يبحث عنها

(٢) الاكتناه معرفة الكنه ، مثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه وهو عنصران بسيطان بحسب ما وصل اليه علم من اكتشف هذا التركيب يسمونهما الاكسجين والادروجين ، فتقول الماء سائل شفاف مركب من الاكسجين والادروجين على نسبة معينة . فيشبه هذا أو يقرب أن يكون اكتناها لهذا المركب لمن اكتنه جزأيه ، ولكن اكتناه البسيط كالادروجين مما لا سبيل اليه كما قال المصنف

ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان . وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته الى معرفة العوارض والخواص، ولذة عقله إن كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة إلى غير ماسيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه: أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر؟ هل هي قبل الجسم او بعده ؟ هل هي فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه صفات لم يصل العقل الى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده أنه عرف انه موجود حي له شعور وإرادة ، وكل ماأحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها ببديهته ، أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانساني مع مايساويه في الوجود أو ينحط عنه، بل كذلك شأنه فيما يظن من الافعال انه صادر عنه كالفكر ،

وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون دهشه بل انقطاعه إذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الازلي الابدي ؟

النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام ، وتخالف الانظار في الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ، ولابد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الافكار أو صولة القوي منها على الضعيف

وأما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب في ذاته ، وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لانه سعي إلى ما لا يدرك ، ومهلكة لانه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد ، لانه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره

لاريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها ، فالنهي واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ،

وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل اليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها

فالذي يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلي أبدي حي عالم مريد قادر ، متفرد في وجوب وجوده، وفي كمال صفاته ، وفي صنع خلقه، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه

أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التي اختلف فيها النظار، وتفرقت فيها المذاهب، فمما لا يجوز الخوض فيه ، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه ، والاستدلال على شيء منه بالالفاظ الواردة ضعف في العقل، وتغرير بالشرع، لان استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقي - وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع . فما علينا إلا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين

افعال الله جل شأنه

أفعـال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره ، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلا شيء من افعاله بواجب الصدور عنه لذاته ، فجميع صفات الافعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص (١) فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم انه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئا من افعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات او في اتصاف الواجب بصفاته مثلا — فان ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الاشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد، ثم التقوا في غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر، فظن كل ان الاخر عدو يريد مقارعته على ما بيده، فاستحر

(١) الامكان الخاص عبارة عن كون كل من إيجاب ذلك وسلبه غير ضروري أي لا يمتنع فعله عقلا ولا يتحتم

بينهم القتال،ولا زالوا يتجالدون حتي تساقط جلهم دون المطلب، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقي وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا علي بلوغ ما املوا ، ولوافتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين

نريد تلك المقالات المضطربةفي انه يجب علي الله رعايةالمصلحة في افعاله وتحقيق وعيده ، فيمن تعدي حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع اعماله تحت العلل والاغراض ، فقد بالغ قوم في الايجاب حتي ظن الناظر في مزعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات . تعالى عن ذلك علواً كبيرا . وغلا آخرون في نفى التعليل عن أفعاله حتي خيل للممعن فيمقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلباً يبرم اليوم ما نقضه بالامس . ويفعل غداً ما اخبر بنقيضه اليوم . او غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو أحكم الحاكمين.وأصدق القائلين. جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة . وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بانه تعالى منزه عن العبث في أفعاله.والكذب

في أقواله ، ثم بعد هـذا أخذوا يتنابذون بالالفاظ ، ويتمارون في الاوضاع ، ولا يدرى إلى أي غاية يقصدون ؟ فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فساداً خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أي وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل — لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل ، وإلا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت منه حركة في نومه قتلت عقربا كادت تلسع طفلا ، أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لو سم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العـقلاء « أن أفعال العـاقل تصان عن العبث » ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر الا لامر يترتب عليها يكون غاية لها ، وان كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بموجد كل عقل ، ومنتهى الكمال في العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد

صنع الله الذي أتقن كل شيء (١) وأحسن خلقه (٢) مشحون بضروب الحكم ، ففيه ما قامت به السموات والارض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذي يفضي به الى العدم ، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته، خصوصا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإيتاء كل محتاج ماله اليه الحاجة، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا (٣) لا يمكن القول بالثاني وإلا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة، أو بالغفلة ان لم تكن مرادة . وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته ، فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا إلا ارادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير

---

(١) مقتبس من سورة النمل ٢٧ : ٨٨ (٢) من (الم) السجدة ٣٢ : ٧ (٣) الظاهر التعبير بأو لا

مرادة ، أذلو صح توهم أن مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وارادته وهو مما لانزاع فيه بين جميع المتخالفين · وهكذا يقال في وجوب تحقق ماأوعد ووعد به، فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين (١) وماجاء في الكتاب أوالسنة مماقد يوهم خلاف ذلك يجب ارجاعه الى بقية الآيات وسائر الاثار حتي ينطبق الجميع على ماهدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى مايليق بكمال الله وبالغ حكمته ، وجليل عظمته .والاصل الذي يرجع اليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى (١٦:٢١ وماخلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين (١٧) لوأردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين (١٨) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون)

وقوله « لاتخذناه من لدنا » اي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق لا يشوبه نقص وهو محال . و« ان » في قوله

(١) كتب المصنف في طرة نسخته هنا ما نصه : ولا يقال ان غاية حكمته الوجوب عليه ، لانه هو جاعل الغاية وذو الغاية وكون الغاية غاية.لانه المبدع الذي لا يتأثر بشيء ولا يحكم عليه أمر ما أراده

« ان كنا فاعلين » نافية وهو نتيجة القياس السابق(١)

بقي ان الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لانه شهوة العقل وفيه لذته — فهذا القسم يسمي المعاني بأسمائها ولا يبالي جوز شرع إطلاقها في جانب الله أم لم يجوز ، فيسمي الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن إطلاق اسم متي صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لاءله عظيم ، يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط في تنزيهه ولو بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه ، فيتبرأ من تلك الالفاظ مفردها ومركبها، فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام، وبعبارة اخرى يوهم القهر والتأثر بالاغيار، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر وهما من لوازم النقص في العلم، والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل إلى نهايته وفيها ما في سوابقها . ولكن الله أكبر، هل يصح أن تكون سعة المجال، او التعفف في المقال ، سبباً في التفرقة بين المؤمنين وتماريهم في الجدال ، حتى ينتهي بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال؟

(١) القياس هو قوله في صحيفة ٥٦ فهذه الحكم التي نعرفها الآن الخ

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقدرة منافيه . ويعد إنكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد بذلك (١) في نفسه يشهده أيضا في بنى نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطالب كسب رزق فيفوته ، وربما سعي الى منجاة فسقط في مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له في الاخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي ان كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه . فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره أو

(١) الظاهر حذف الباء فانه من شهود الشيء لا الشهادة به كما في سابق القول ولا حقه

لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله، كأن هب ريح فأغرق(١) بضاعته، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته. أوعلق أمله بمعين فمات أو بذي منصب فعزل. يتجه من ذلك إلى أن في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته، فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضي علمه وإرادته، خشع وخضع، ورد الامر اليه فيما لقي، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات، يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية ـ عقلية كانت أوجسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لاجله، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لاجله

على هذا قامت الشرائع، وبه استقامت التكاليف. ومن أنكر شيئا منه قد انكر مكان الايمان من نفسه، وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه

(١) الريح مؤنثة وقد ذهل المؤلف عن تصحيحه ولم يتركه لان التأنيث مجازى

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار، فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشريعة ، ومحو للتكاليف ، وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الايمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي الى الاشراك بالله - وهو الظلم العظيم - دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الاسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه — كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الامراض بغير الادوية التي

هدانا الله اليها ، والاستعانة على السعادة الاخروية أوالدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا

هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الامر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية (الاول) ان العبد يكسب بارادته وقدرته ، ما هو وسيلة لسعادته (والثاني) أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وان من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده ، وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه إلى اتمام عمله بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه أن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر واجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لاحد أن يذهب الى غير ذلك

وهذا الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عجبت له الامم ، وعول عليه من متأخري أهل النظر امام الحرمين الجويني(١) رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

---

(١) امام الحرمين لقب ابي المعالي عبدالملك بن ابي محمد عبدالله بن يوسف الجويني الذي نصر مذهب السلف بالصراحة التامة

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضي من المكلف الا اعتقاده أن الله صرفه في قواه : فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الاعمال ، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الاعلى في اتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الاسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته

وأما التطلع الى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا ، وانما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار عن الاسرار . ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم - على أن ذلك نور يقذفه الله في قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الاثر فيما عليه حال الامة اليوم (١)

لو شئت لقربت البعيد فقلت ان من بالغ الحكم في الكون أن تتنوع الانواع على ماهي عليه في العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه ، وكذا الحال في تميز الاشخاص ، فواهب

(١) هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدي الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات

الوجود بهب الانواع والاشخاص وجودها على ما هي عليه، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه، ومن تلك الانواع الانسان،ومن مميزاته -حتى يكون غير سائر الحيوانات- أن يكون مفكراً مختاراً في عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر . والفرض أنه الانسان، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته، وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر . والاعمال في جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ، فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب ، وكون ما في العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل.

ولنا في علومنا الكونية أقرب الامثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لاميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالالزام. فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزما ولا مانعا .

وانما يريبك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ

ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية ، لكن يمنعني عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه في صحة الايمان، وتقاصر عقول العامة عن إدراك الامر في ذاته مهما بالغ المعبر في الايضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد، فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقاً لما يعتقدون، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته ، وان أدي ذلك إلى جحد العقل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم «ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله في خلقه ، وتحريف لهديه في شرعه » عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الي السكون ، محتجين بأن هذا هو المألوف، وما أقمنا إلا على معروف ، ولا حول قوة إلا بالله العلى العظيم

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الاكوان الواقعة تحت مداركنا، وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها او استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا، او حضورها في مخيلاتنا — وذلك بديهى لا يحتاج الى دليل

نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الاشياء والقبيح منها، فان اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء، أو مشارب النساء في معني جمال الرجال، فلم يختلف أحد في جمال ألوان الازهار وتنضيد أوراق النباتات والاشجار، خصوصا إذا كانت أو ضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الالوان بعضها مع بعض — ولا في قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الاخر على غير نظام، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة او اعجاب، ومن القبيح اشمئزاز أو جزع، وكما يقع هذا التمييز في المبصرات، يقع في غيرها من المسموعات والملموسات

والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم باحدي تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وماهو القبح في الاشياء ، ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الانسان بل و بعض الحيوان التمييز بينهما . وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف انواعها وبه ارتقي العمران في أطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن ، وان اختلفت الاذواق — ففي الاشياء جمال وقبح

هذا في المحسوسات واضح كما سبق ، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة . وان اختلف اعتبار الجمال فيها . فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والارواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه . وتنبهر له بصائر لا حظ له . وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان عن أثر الاحساس بالقبيح في المحسوسات ، وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل ، والسقوط في الهمة ، وضعف العزيمة؟ ويكفي أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون في إخفائها، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح مايقترن به ، فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر، لكن اثر المر في معالجة المرض ، وعدل الدميم في رعيته أو إحسانه اليك في خاصة نفسك، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته، فان جمال الأثر يلقي على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ، ومثل ذلك يقال في قبح الحلو اذا أضر ، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر

هل يمكن لعاقل أن لا يقول في الافعال الاختيارية، كما قال في الموجودات الكونية ، مع انها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها واما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟ كلا بل هي قسم من الموجودات حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداهة.

فمن الأفعال الاختيارية ماهو معجب في نفسه تجد النفس منه ماتجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين في الألاعيب المعروفة اليوم «بالجمناستيك» وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها. ومنها ماهو قبيح في نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء

النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع المذعورين (١)

ومنها ماهو قبيح لما يعقبه من الالم، وما هو حسن لما يجنب من اللذة أو دفع الالم . فالاول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الانسان . والثاني كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل مايحصل لذة أو يدفع ألما مما لا يحصي عده . وفي هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ ، والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الافعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود ، اللهم إلا في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الافعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، وما يقبح بما يجر اليه من الضرر، ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته، وهو خاصة العقل، وسر الحكمة الالهية في هبة الفكر .

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالافراط في تناول الطعام والشراب . والانقطاع إلى سماع الاغاني والجري في أعقاب الشهوات

(١) نقعهم صياحهم . يقال نقع الصوت اذا ارتفع . ونقع الصارخ (كفتح) نقعا ونقوعا رفع صوته

فان ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل . وانما قبح اللذيذ في هذا الموضوع لقصر مدته وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام التى ربما لا تنتهي إلا بالموت على أسوأ حالاته، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الالم

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب في الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن، ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ان عدت الحياة مثاراً لها

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا مقارعة الانسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته — حسب ارتقائه في الاحساس — ومخاطرته ولو بحياته في سبيل ذلك . كانه يرى في بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه. وان لم يحددها عقله . ومنه معاناة التعب في كشف ما عمي عن علمه من حقائق الكون . كانه لا يرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس إلى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه ، واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه أوماله ، لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتي على ذات المتعدي، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الاول فعل الشر والثاني عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وقد حددها النظر الفكري على تفاوت في الاجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه في هذه الحياة، كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده ، وعزة الامم وذلها ، وضعفها وقوتها ، وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

كل هذا من الاوليات العقلية لم يختلف فيه ملي ولا فيلسوف، فللأعمال الاختيارية حسن وقبح في نفسها أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع، والشاهد على ذلك ما نراه في بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى

الشرع وما وصل الينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه في جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين في أحوال النمل قال: كانت جماعة من النمل تشتغل في بيت لها (١) فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم، ورفع البنيان الى الحد الموافق، ووضع السقف على أرفع مما كان، وذلك من أنقاض السقف القديم. وهذا هو التمييز بين الضار والنافع — فمن زعم أن لا حسن ولاقبح فى الاعمال على الاطلاق فقد ساب نفسه العقل، بل عدها أشد حمقا من النمل(٢)

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل، فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر، ثم انتقل من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل في الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين، ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه

---

(١) كان ينبغي ان يقول قرية لها (٢) ليته قال: أقل علما من النمل وقد روي عن سليمان عليه السلام: كن حكيما كالنملة

أو شقاء ، ثم قال ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل ، وانها انما تسقط في الشقاء بالجهل بالله و بارتكاب الرذائل ، و بني على ذلك أن من الاعمال ماهو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ماهو ضار لها بعده بايقاعها في الشقاء ، فأى مانع عقلي أو شرعي يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله : ان معرفة الله واجبة ، وان جميع الفضائل وما يتبعها من الاعمال مفروضة ، وان الرذائل وما يكون عنها محظورة ، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد ، و الى أن يأخذوا من الاعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم ان معرفة الله واجبة ، وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الاخرى والرذائل مدار الشقاء فيها ، فما لا يستطيع عاقل أن يقول به ، والمشهود من حال الامم كافة يضلل القائل به في رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل او أسد مثلا ، وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما اليه الحاجة ، لاهتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد، ولا تختص معيشته بجو من الجواء (١) ولا بوضع من الاوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته في اي اقليم وعلى اي حال، وان يختلف ظهور هذه المدارك في اطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه واشخاصه اختلافا لا تنتهي درجاته — ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات الا باستقامة القامة ، وعرض الاظفار

***

وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة والمخيلة والمفكرة — فالذاكرة تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الاشباه أو الاضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهي — والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه مشاهد، ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضي ، ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه . فتلجأ الي الفكر في تدبير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

١) الجو جمعه جواء كسهم وسهام ، وكان في الاصل الاجواء

فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر، ينظر مثلا في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألما لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء في سد حاجاته أو في دفع الألم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التي لا يتعلق بها حق من حقوق غيره، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهبه الله من القوى في نفسه ، وما سخره له من قوى الكون المحيطة به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا في يد غيره، فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال، ويعظم له الخيال لذة مثلها في المستقبل ، ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر، فيستتر عنه ما طاب من وجوه الكسب، وإنما يعمد إلى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له ، وأخل بالامن الذي أفاضه الله بين عباده، وسن سنة الاعتداء، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله.

وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا في المثالين — فلقوة الذاكرة وضعفها، وحدة الخيال واعتداله، واعوجاج الفكر واستقامته، أعظم أثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الاعمال، وللامزجة والجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر بل وفي الذكر

فالناس متفقون على أن من الاعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه اصابة وجه الحق في معرفة ذلك، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلما في الحال، وان القبيح ما جر إلى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به، وإن عظمت لذته الحاضرة، ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم[1] فلذلك ضربوا إلى الشر في كل وجه، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعا ويتقي ضارا. فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته

(١) يقال اكتنفه القوم بمعنى أحاطوا به فهو يتعدى بنفسه وعداه بالباء بحسب معناه

في هذه الحياة . اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن ، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الاجيال وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم ، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسالك السعادة . فليس في سعة العقل الانساني في الافراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة ، وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصهم الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل (١) شرف الاقتداء بهدي نبوي ، ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه . وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الالهي

ثم من أحوال الحياة الاخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل اليه وحده، وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو بوجه ما

(١) الفاعل ضمير يعود إلى كلمة قليل بحسب لفظها

ومن الاعمال مالا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه(١) لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها، كصور بعض العبادات كما يرى في أعداد الركعات وبعض الاعمال في الحج في الديانة الاسلامية . وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية (٢) وضروب التوسل والزهادة في

١) أي لا يعرف وجه الفائدة فيه نفسه غير كونه تعبدا مع ظهور فائدته التعبدية وهو فعله لمحض امتثال أمر الله تعالى دون ملاحظة منفعة خاصة به، ويعبرون عن هذا القسم من العبادة بغير معقول المعنى. ويقابله معقول المعنى جملة وتفصيلا كالوضوء والغسل وطهارة البدن والثوب فان فائدة ذلك من حفظ الصحة وراحة النفس وهناء المعيشة ظاهرة . كذلك فائدة الصلاة في جملتها والصيام والزكاة وغير ذلك من حكم العبادات وقد أجملها المؤلف في الكلام على الدين الأسلامي. ومن المستغرب قوله هنا : لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها

٢) يظهر لي أن حكمة بعض الاحتفالات في الديانة الموسوية هي محاكاة ما ألفه اليهود في مصر ثم في فلسطين من رؤية احتفالات الامم الوثنية مع توجيه الانفس فيه إلى عبادة الله تعالى والتوجه اليه وحده حتى لا يعودوا الى مثال ما فعلوا في التيه من اتخاذ عجل كعجل المصريين (ابيس) والى مثل عبادتهم

وأما المبالغة في الزهد المتواتر عن المسيح عليه السلام فحكمته المبالغة في مقاومة غلو اليهود والرومان في عصره في عبادة المال والشهوات البدنية تمهيد الدين الاسلام الوسط المعتدل الدائم الذي يجيء به البارقليط روح الحق محمد (ص) الذي بشرهم به وقال انه هو الذي يعلمهم كل شيء

الديانة العيسوية ـ كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه. ويعلم الله أن فيه سعادته (١

لهذا كله كان العقل الانساني محتاجا ـ في قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ماهو خير له فى الحياتين ـ الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الاعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الالوهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من احوال الاخرة ـ وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة. ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه، حتى يكون من بني جنسه، ليفهم منه اوعنه ما يقول، وحتى يكون ممتازا على سائر الافراد بأمر فائق على ماعرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهنًا (٢ على انه يتكلم عن الله الذي يعلم مصالح العباد على ماهي عليه، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغي أن يعرف منها، والحياة الاخرة وما أعد فيها، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينًا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن إدراكه

(١) ضرب الغزالي مثلا لمعرفة المكلف فائدة العبادة في جملتها دون بعض تفصيل جزئياتها ووجوب تفويض ذلك الى علم الله تعالى فشبهها بالدواء يعلم المريض بالتجربة او الثقة بالاطباء انه يشفي من المرض. وهو يجهل فائدة تركيبه من اجزاء بعضها قليل كقمحة او قمحتين وبعضها كثير كاوقية أو عشر اواق مثلا، ويفوض ذلك الى علم الطبيب
٢) أكثر نقلة اللغة على ان النون في البرهان زائدة وان قولهم برهن مولد وإنما يقال أبره أي جاء بالبرهان وحكى بعضهم الوجهين كالازهري.

وذلك المعين هو النبي

النبوة تحددما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك، وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم في مقامات عرفانهم. لكنها لا تحتم الا ما فيه الكفاية للعامة. فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته. وبالصفات التي أثبتناها على الوجه الذي بيناه. وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك. فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص، وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشيء مما أوجبه الشرع في ذلك وقبحه، مما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس. ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذي هو عماد الطمأنينة، فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه، وضده يستحق العقوبة التي نص عليها — كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة، غير أن ذلك لا ينافي أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة في نفسها وإنما جاء الشرع مبينا للواقع فهو ليس محدث الحسن، ونصوصه تؤيد ذلك

وأذكر مثالا من كثير: قال تعالى على لسان يوسف(١٢: ٣٩ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) يشير بذلك إشارة واضحة الى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجه قلبه اليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، وأما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام اخوتهم ، وهي قاعدة سعادتهم ، واليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان(١) فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه

النبوة تحدد أنواع الاعمال التي تناط بها سعادة الانسان في الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها ، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهي عنه ،

١) كان المؤلف رضي الله عنه يعتقد ان ارتقاء الامم من طريق علوم الكون والنفس والاجتماع سينتهي بهم الى التوحيد وسائر ما قرره القرآن من أصول الدين(٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ٥٤ ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شيء محيط)

فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه ، وحظر عمل أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته الشريعة، وعلى انه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا ـ مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية ، وهو لا ينافي أيضاً ان يكون المأمور به حسناً في ذاته ، بمعنى انه مما يؤدي الى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره في أحوال المعيشة أو في صحة البدن أو في حفظ النفس أو المال أو العرض، أو في زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه، كما هو مفصل في الاحكام الشرعية . وقد يكون من الاعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه ، وهذ النوع لا حسن له الا الامر، ولا قبح الا النهي . والله أعلم

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه مالاغنى له عنه ، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود

والكلام في هذا البحث من وجهين (الاول) وهو أيسرهما على المتكلم وجه ان الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من اركان الايمان (١) فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد ان الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما امرهم بتبليغه من تنزيه لذاته ، وتبيين سلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لاحكامه ، في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها ، وفي نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها — وان يعتقد وجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم ، والائتمار بما امروا به والكف عما نهوا عنه ، وان يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه

(١) يقابل هذا الوجه حاجة البشر الى الرسالة وقد عقد له فصلا خاصا سيأتي في (صفحة ٨٩)

كتباً تشتمل على ما اراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والاحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها ، وان هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق - وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا الاستطاعة البشرية ، وان هذا الامر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه ، فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته .

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم في أقوالهم ، وأمانتهم في تبليغ ما عهد اليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل مايشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الابصار ، وتنفر منه الاذواق السليمة ، وانهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة ، وان أرواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لايمكن معه لنفس انسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية - أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده : يأكلون ويشربون وينامون ، ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام - ويمرضون وتمتد اليهم ايدي الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الانبياء .

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي

المعروف في الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الاكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف

فان قيل ان ذلك لابد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعي ، قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه ان يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما في الامر اننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده ، على اننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بانه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة وتابعا لاي سبب اذا سبق في علمه انه يحدثه كذلك

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لان النبي يستند اليها في دعواه انه مبلغ عن الله ، فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له فى تلك الدعوى . ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فان تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله (١) . فمتى ظهرت المعجزة وهي مما

١) يشير المصنف الى أن دلالة المعجزة وضعية لانها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور وقيل عقلية وقيل عادية ، ومن هذه المباحث ما قرره المتكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد في النصوص السمعية

لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما اظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده ،وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وامثاله فان سلّم أن مظاهره فائقة عن (١) آثار الاجسام والجسمانيات فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أوتضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر ، أومس عقولهم شيء من الضعف لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهي الذي يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه، والكشف لهم عن أسرار علمه . ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم ، حجة للمنكر في انكار دعواهم ، ولو كذبوا أوخانوا

(١) فعل فاق يتعدى بنفسه يقال فاق اقرانه ولعله ضمنه معنى الانفصال على القول بقياسية التضمين ومثله قوله بعده لا تعلو عن متناول القوى . يقال علاه وعلا بعضهم على بعض وقد ضمنه معنى البعد . والسحر ليس من الخوارق كما توهم بعض المتكلمين فانه صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن وتاريخ قدماء المصريين وغيرهم وقد بينا حقيقته في تفسير قصة هاروت وماروت (صفحة ٣٩٨ من الجزء الاول من تفسير المنار)

أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلين لامر شدين فتذهب الحكمة من بعثهم، والامر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام .

وأما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل أن النبي ﷺ نهى عن تأبير النخل (١) ثم أباحه لظهور أثره في الاثمار فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه مادامت الشرائع مرعية ، والفضائل محمية ، وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالاكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الاكل والمؤاخذة عليه ، وغاية ماعلمناه من حكمته أنه كان سبباً

(١) تأبير النخل تلقيحه والحديث في صحيح مسلم والروايات صريحة في تأييد قول المجوزين دون الجمهور ومنها رواية موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعا « ان كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فاني انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله عز وجل » ورواية رافع بن خديج « انما انا بشر اذا امرتكم بشيء من امر دينكم فخذوا به واذا امرتكم بشيء من رايي فانما انا بشر » ورواية عائشة (انتم اعلم بأمر دنياكم)

لعمارة الارض ببنى ادم كأن النهي والاكل رمزان الي طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الانساني في الوجود . والله أعلم (١) ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب اليه الجمهور

---

١) للمؤلف رحمه الله كلام مفصل في هذه المسألة قرره في تفسير قصة آدم من سورة البقرة يطلب من الجزء الاول من تفسير المنار فهو مما لم يحوم حوله أحد فيما علمنا

وقد قيل أيضا . ان آدم عليه السلام لم يكن فى الجنة نبيا رسولا ولم يكن معه أمة يخشى أن تسوء قدوتهم به وقد صح في حديث الشفاعة أن نوحا اول رسول ارسله الله الى اهل الارض وهو ظاهر عدة آيات في القرآن لا محل هنا لذكرها . وانما الغرض هنا ان قصة آدم عليه السلام لا ترد على الدليل النظرى الذى استدلوا به على عصمة الانبياء والجمهور يقولون بأن عصمتهم إنما تثبت بعد النبوة لا قبلها والمجمع عليه منها العصمة في التبليغ أو عما ينافي الرسالة وعن الكفر قال السعد في شرح المقاصد والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقا والصغائر عمدا لا سهوا ، لكن لا يصرون ولا يقرون بل ينبهون فيتنبهون . ثم اجاب عن معصية آدم بأنها كانت قبل البعثة (قال) وكيف ولم تكن في الجنة امة وكان عن نسيان لقوله تعالى (فنسي) الخ

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك في الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الاول. وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل . والكلام في هذا الفصل موجه إن شاء الله إلى بيان الحاجة اليهم. وهو معترك الافهام، ومزلة الاقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام ، ولسنا بصدد الاتيان بما قال الاولون، ولا عرض ماذهب اليه الآخرون، ولكننا نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب اليه من أقرب الطرق ، من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف ، أو استقام عليه الموافق ، اللهم إلا إشارة من طرف خفي ، أو إلماعا لا يستغني عنه القول الجلي .

وللكلام في بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان (الاول) — وقد سبق الاشارة اليه — يبتديء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت ، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم، أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية، معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية ، سواء كانت تلك الاعمال

قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنيـة كأنواع العبادات والمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة إلا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء [١] وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه، فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهي عند ما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها ، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ، ألطف من هذه الاجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الاخرويين وفيما هو متاع الحيـاة الآخرة وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه

---

(١) يريد بالفناء المنفي الزوال المطلق والا فالفناء يطلق على ما نفسر به الموت المحتوم

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، او نزغة وهمية ، وانما هو من الالهامات التي اختص بها هذا النوع ، فكما ألهم الانسان ان عقله وفكره هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا ، وان شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد في عمل ما ، أو إلى أنه لا يمكن للعقل ان يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا ان لا وجود للعالم إلا في اختراع الخيال ، وانهم شاكون حتى في انهم شاكون ، ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الاجل المحدود ، كذلك قد الهمت العقول وأشعرت النفوس ان هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود ، بل الانسان ينزع هذا الجسد ، كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا في طور اخر وان لم يدرك كنهه

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء ، يشعر كل نفس انها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيأة

لدرجات من الكمال لا تحددها اطراف المراتب والغايات، معرضة لالام من الشهوات ونزعات الاهواء ، ونزوات الامراض على الاجساد ، ومصارعة الجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لاتدخل تحت عد ، ولا تنتهي عند حد ، إلهام يلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للانواع ، إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء ، ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف، فما كان استعداده لقبول مالا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات ، لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام او سنين معدودات

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدي وماعسى ان تكون عليه متى وصلت اليه ، وكيف الاهتداء وأين السبيل ، وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل ؟ شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة القصيرة الامد لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الاقوم ، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والارشاد ، وقضاء الازمنة والاعصار ، في تقويم الانظار وتعديل الافكار ، وإصلاح الوجدان ، وتثقيف الاذهان ، ولانزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لا ندرى متي نخلص منه ، وفي شوق إلى طمأنينة لانعلم متى ننتهي اليها

هذا شأننا في فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدي بها الى الغائب ؟ وهل في طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ما قدرله في حياة يشعر بها وبأن لامندوحة عن القدوم عليها، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعدله فيها، والشئون التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه ، أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟

هل في أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والاعمال، وذلك الكون مجهول لديك، وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة اليك ؟ كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العقل ومرامي المشاعر، ولا اشتراك بينهما الافيك أنت، فالنظر في المعلومات الحاضرة، لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصانع الحكيم ، الذي أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم، الذي خلق الانسان ، وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته؟ يميزهم بالفطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون

معه للاستشراق بأنوار علمه ، والامانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد، وبداية الغائب ، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله ، وما خفي عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدّر أن يكون له مدخل في سعادتهم الاخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد من متناول أفهامهم، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحددلهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الاعمال ماهو مناط سعادتهم وشقائهم، في ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله، اللاصق علمه باعماق ضمائرهم في إجماله . ويدخل في ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين

لاريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه ، وأبدع في كل كائن صنعه ، وجاد على كل حي بما اليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلا من خلقه، يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم مايقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط في أهم حياتيه، والضلال في أفضل حاليه.

يقول قائل : ولم لم يودع في الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ، ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية في الحياة الاخرى؟ وماهذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث ، — وهو النوع الانساني — ذلك النوع على ما به، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه ، وان يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال ، فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع، بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل، أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

المسلك الثانى فى بيانه الحاجة الى الرسالة

يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه

أرتنا الايام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع إلى بعض الغابات أو إلى رءوس الجبال ، ويستأنس إلى الوحش ويعيش عيش الاوابد من الحيوان، يتغذى بالاعشاب وجذور النبات، ويأوي إلى الكهوف والمغاور، ويتقي بعض العوادي عليه بالصخور والاشجار، ويكتفي من الثياب بما يخصف من ورق الشجر أوجلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا

ولكن مثل هـذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر (١) وتعيش عيشة لاتتفق مهما قدرلنوعها، وإنما الانسان نوع من تلك الانواع التي غُرزفي طبعها أن تعيش مجتمعة وإن تعددت فيها الجماعات، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه ، وأودع في كل شخص من أشخاصها شعوراً ما بحاجة إلى سائر أفراد الجماعة التي

(١) الدبر بالفتح والكسر جماعة النحل وكذا الزنابير

يشملها اسم واحد . وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة إلى الاطالة في بيانه . وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش إلا في جملة ، ماوهبه من قوة النطق، فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعاني في الالفاظ وتأليف العبارات الالاشتداد الحاجة الى التفاهم، وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر، الا الشهادة بان لا غنى لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائر هام مالا يشتبه فيه، وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدي العاملة، فتشتد الحاجة، وعلى أثرها الصلة من الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع باسره . وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى

هذه الحاجة خصوصاً في الامة التي حققت عنوانها ، لها صلات وعلائق ميزتها عما سواها : حاجة في البقاء ، حاجة في التمتع بمزايا الحياة ، حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

لو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة في غيره ، لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين افراده ، عامل يشعر كل

نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل. فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب، هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منهما المدافعة عنه في حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الامم وروحا لبقائها، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون، فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب، فان اشتدت كانت ولعا وعشقا ـ

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ماهو فيها لا يفارقها، ولا يكون هذا النوع منها في الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا في روح المحبوب وشمائله التي لا تفارق ذاته، حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه. فاذا عرض التبادل والتعارض ولوحظ في العلاقة بينهما، تحولت المحبة الى رغبة في الانتفاع بالعوض، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع. وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه في سداد عوزه، فصورة شبعه وريه

وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له ، فهو يتوقع فقدها بفقده ، فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر مّا عادت اليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لأن الالهام الذي هدي به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب، فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب، فحاجته في سد عوزه هي حاجته إلى القائم بأمره، فيحبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض في الخدمة

أما الانسان — وما أدراك ما هو — فليس أمره على ذلك. ليس ممن يلهم ولا يتعلم، ولا ممن يشعر ولا يتفكر، بل كان كماله النوعي في إطلاق مداركه عن القيد، ومطالبه عن النهايات، وتسليمه على صغره، إلى العالم الاكبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله وهي غير محصورة، حتى يعتصر منه منافعه وهي غير محدودة ، وإبداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل اليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة، فلا تنتهي رغائبه إلى غاية، ولا تقف مخاوفه عند نهاية (٧٠:١٩ إن الانسان خلق هلوعا ٢٠ إذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا)

تفاوتت أفراده في مواهب الفهم وفي قوى العمل، وفي الهمة والعزم، فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعا، يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده، ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل ، إعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وإن لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لاضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالي بارساله إلى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة أو الوصول إلى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة ، فقام التناهب مقام التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الانسان إما الحيلة وإما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس في اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعا في وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية ؟ كلا ! ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد اليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الانفس

كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول اليها من الارواح مكانا كاد لاتصعد اليه (١) سائر اللذات ،وهي من أفضل العوامل في احراز الفضائل، وتمكين الصلات بين الافراد والامم،لو صرفت فيما سيقت لا جله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للاسباب التي أشرنا اليها من التفاوت في مراتب الادراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته في القلوب باخافة الامن (٢) وازعاج الساكن، واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيّب الحرمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا في الاعمال ؟ أولا تكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا في تفانيهم ؟ لاريب أن البقاء على تلك الاحوال من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الانساني في حفظ بقائه من المحبة أو ماينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة الى العدل ، وظنوا كما

---

١) الاصل ان يقال : لاتكاد تصعد اليه الخ أو كاد أن لا تصعد اليه (٢) يحتمل أن تكون الكلمة «الآمن» اسم فاعل وهو المناسب لما بعده، وأن تكون مصدراً بمعناه وهو ظاهر نسخة المؤلف إذ ليس فيها علامة المد

ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة « ان العدل نائب المحبة » نعم لا يخلو القول من حكمة ، ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة علي رعايتها ؟ قيل ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء، كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة . وقد رأينا ان اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل واصالة الحكم ، تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف ، فيعرفون لكل حق حرمته، ويميزون بين لذة مايفنى ومنفعة مايبقى، وقدجاءمنهم أفراد في كل أمة وضعوا أصول الفضيلة ، وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا أعمال الانسان الى ماتحضر لذته وتسوء عاقبته وهو مايجب اجتنابه، والى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغبته وهو ما يجب الاخذ به ، ومنهم من أنفق في الدعوة الى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه الى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافي الحق ظاهره ، ولكن هل سمع في سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم

لرأي العاقل لمجرد أنه الصواب ؟ وهل كفى في اقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم : إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعوهم اليه ؟ وان أقام على ذلك من الادلة ماهو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ كلا ! لم يعرف ذلك في تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الادراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقل والتقارب في الاصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل ، الا كما يعرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن في مرتبتك من العقل ، لم يذق مذاقك من الفضل ، فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ماوضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها

أضف الى ماسبق من نزعات الفكر ونزغات الاهواء ، شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها : كل انسان مهما علا فكره وقوي عقله ، أوضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته قوة ما أنس منه الغلبة عليه ماحوله ، وأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ماهو فيه من العوالم في وجوه

ربما لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرف اليها ارادة المختارين ، تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها الا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر ، فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر ، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة تماثل في أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الانواع ، فجعل لكل نوع إلها

ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الاذهان ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الي معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود ، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه ، فبقي الخلاف ذائعاً ، والرشد ضائعاً

اتفق الناس في الاذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعاتهم ، لكنهم اختلفوا في فهم ماتلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان

أشد أثراً في التقاطع بينهم واثارة أعاصير الشقاق فيهم ، من اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش في جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادي الى ما يلزم لذلك ، وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ، ولم يفض عليه مع هذا الشعور عرفانه (١) بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وانما ألقى به في مطارح النظر ، تحمله الافكار في مجاريها وترمي به الى حيث يدري ولا يدري ، وفي كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل مني هذا النوع بالنقص ورزيء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود؟ نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب في شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب

---

١) لعل الاصل «عرفان» فان في إضافة العرفان المنفي الى المنفي عنه إثباتا له فان الاصل في مثل هذه الاضافة الملك وما فى معناه وهذا جمع بين النفي والاثبات كما بينه الامام عبد القاهر في دلائل الاعجاز وهو ظاهر بنفسه لمن تأمله والناس عنه غافلون

الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت (١) ويسامي بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى دركٍ من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبصرون ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين

من ذلك الضعف قيد إلى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده (٢) وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء ، وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالاجماع — منّ عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة بل الراجع بها إلى النفوس التي أقفرت منها ، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد ، غير أنه أتاه مع

(١) الملكوت صيغة مبالغة للملك ولا يطلق الا على ما لله تعالى منه دون ملك البشر ومثله الرحموت والرهبوت والجبروت وهذا من الجبر وهو اصلاح الكسر . وللملكوت والجبروت معنى آخر في اصطلاح الصوفية يراجع فى تعريفات السيد الجرجانى وغيرها

٢) أي أكمل للمجموع ما لا يصل اليه كسب الافراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحي الذي هو له كالعقل للافراد

ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك بيواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له، ويستوي في الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري .

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته — وأولئك هم الأنبياء والمرسلون — فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان، ومن أهم حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

إمكان الوحي

الكلام في إمكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصوير المعنى الذي يراد منه . ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ، ولا يعنينا ما تثيره الالفاظ في الاذهان . ولنذكر من اللغة ما يناسبه ، يقال : وحيت اليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحي مصدر من ذلك ، والمكتوب والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى إلى الانبياء من قبل الله . وقيل : الوحي إعلام في خفاء ، ويطلق ويراد به الموحى . وقد عرفوه شرعا أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة . والاول بصوت يتمثل لسمعه(١) أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور

---

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك كما ورد فى الحديث الثانى من صحيح البخاري اهمن حاشية نسخة المؤلف

أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ماغاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك، وسهولة فهمه عند العقل، فلا أراه مما يصعب ادراكه إلا على من لا يريد أن يدرك، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم. نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم إلى ماوراء سواحل اليقين، فيسقطون فى غمرات من الشك في كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ماهو أدني من مراتب أنواع أخري من الحيوان، فينسون العقل وشئونه، وسره ومكنونه، ويجدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الاوامر والنواهى، بل عن محابس الحشمة التى تضمهم إلى التزام مايليق، وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق، كما هو حال غير الانسان من الحيوان، فاذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والاديان، وهمّ من أنفسهم هامٌّ بالاصغاء، دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر، وانصرفوا عنه، وجعلوا أصابعهم في آذانهم، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم، فيلزمهم العقيدة، وتتبعها الشريعة، فيحرموا لذة ماذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا، وهو مرض في الانفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت : أي استحالة في الوحي وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة؟

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا ، وان الادنى منها لا يدرك ما عليه الاعلى إلا على وجه من الاجمال ، وان ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط . بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه . ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه . ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى مالا يحصره العدد ، وان من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها (١) قريباً فيسعى اليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذي لا ينازع ، والظاهر الذي لا يجاحد ، فاذا أنكره منكر ثاروا عليه . ثورتهم في بادىء الامر على من دعاهم اليه . ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة إلى اليوم

فاذا سلم « ولا محيص عن التسليم » ما أسلفنا من المقدمات ،

---

(١) أي يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريبا عنده

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهي لان تتصل بالافق الاعلى، وتنتهي من الانسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم. ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه اليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة ، يظهر برحمته ، من يختصه بعنايته ، ليفي للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته ، إلى أن يبلغ النوع الانساني أشده ، وتكون الاعلام التي نصبها لهدايته إلى سعادته كافية في إرشاده ، فتختم الرسالة ، ويغلق باب النبوة ، كما سنأتي عليه في رسالة نبينا ﷺ

أما وجود بعض الارواح العالية ـ وهم الملائكة المكرمون ـ وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية ، فما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا ، وأرشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وإن غيب عنا ، فأي مانع من أن يكون بعض

هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الالهي ، وأن يكون لنفوس الانبياء إشراف عليه ، فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته ؟ (١)

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الارواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم. فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله إنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع ، فان جاز التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها الا في النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس . وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم

---

١) قال فى الاساس : أذعن له : سلس وانقاد. وأذعن فلان بحق : أقر به اه وكلا المعنيين يصح هنا ولكنه فى الاول أظهر

بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم (١) وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم، لان شأنهم في الناس أيضا غير الشئون المألوفة، وهذه المغايرة من أهم ماامتازوا به وقام منهما الدليل على رسالتهم. والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه ان أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم، ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتل، ويستقيم النظام بمختل.

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء، ممن لم

(١) بل ثبت بتجارب الاطباء حتى الماديين منهم أن بعض هؤلاء المرضى يخبر ببعض المغيبات وبالامور قبل وقوعها فيصدق. قال مريض منهم كثرت اخباره فى ذلك وكان بمصر: ان فلانا — من أقاربه — فى الاسكندرية خرج من داره الى محطتها قاصداً السفر الى مصر لعيادتى .. ثم أخبر أنه وصل الى محطتها ودخل القطار ثم شغله الطبيب بأمور تهمه حتى اذا ما جاء موعد وصول قطار الاسكندرية الى مصر قال المريض قد وصل القطار ونزل فلان منه ... هاهوذا خرج من المحطة وركب مركبة تحمله الى هنا . ثم قال هاهوذا قد وصل، فاذا هو بالباب وقد دخل. فالروح التي تدرك مثل هذا وهو غائب عنها تعطينا دليلا حسيا على امكان ادراك روح أكمل منها لعلوم من الغيب أعلى مما أدركته هي

تدن مراتبهم من مراتب الانبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس ، بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس : لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم . ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف . ودليل صحة مايتحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتلألىء في ضمائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به . ولا يكون لهم إلا سوء الاثر في تضليل العقول وفساد الاخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبؤا به وبوقوعه الا حجاب من العادة ، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكي عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ، ما يغنيه عن البيان ، كما سلف في الوجه الاول من الكلام على الرسالة. وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر، وهو كما تبين في علم آخر رواية خبرعن مشهود (١) من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب ، وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالاخبار بوجود مكة أو بأن للصين عاصمة تسمى (بكين) وسبب استحالة التواطؤ على الكذب إستيفاء الخبر لشرائط معلومة ، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به، ومرجع كل ذلك إلى العدد، وبعد الراوي عن التشيع لمضمون الخبر

لانزاع بين العقلاء في أن هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين

(١) قوله «مشهود» أي شيء شهده المخبرون ، وحضروا وقوعه فكان معلوما بالحس قطعا كاخبار من سمعوا قولا بأنهم سمعوه ومنه تواتر القرآن وبعض الاخبار دون كتب أهل الكتاب فانه ليس عندهم أسانيد متصلة في نقلها لامتواترة ولا آحادية

بالخبر به، وإنما النزاع في اعتبارات تتعلق به. ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى. ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالاقوى سلطانا، ولا بالاكثر مالا، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه، وغاية الامر أنهم لم يكونوا من الادنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الانظار، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم، قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة، ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر، وكان الخير لاممهم في اتباع ماجاءوا به

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها، فهذا وما أقاموه من الادلة عند التحدي لا يصلح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله، ولا في دعواهم أنه كان يوحى إليهم ماشرعوا للناس، على أن من لا يعتقد ما يقول، لا يبقى لمقاله أثر في العقول، والباطل لا بقاء له إلا في الغفلة عنه، كالنبات الخبيث في الارض الطيبة ينبت

باهمالها ، وينمو (١) باغفالها ، فاذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك الانبياء ، قامت في العالم الانساني ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين ، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائما في خلال ما ألحق بها المبتدعون

وأما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم (٢) فيكفي في إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا ﷺ فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به ، وسنأتي على الكلام في رسالة نبينا محمد ﷺ في باب على حدته إن شاء الله

---

١) نما ينمو لغة ضعيفة في نمى ينمي شاع استعمالها في عصرنا

٢) أي بالتفصيل وهم الذين صرح القرآن برسالتهم وذكرهم بأسمائهم وعددهم ٢٣ أو ٢٤ أو ٢٥ خلاف

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم في حاجة العالم الانساني إلى الرسل أنهم من الامم بمنزلة العقول من الاشخاص. وأن بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه — ولكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة أو تقويم ملكاتها أو إيداعها ما فيه سعادتها في الحياتين

وأما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والارشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات اليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ،

وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الاعمال السابقة أحداً من الناس بشرّ في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ما حدد في شريعتها

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان (١) على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه (٢) ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ، يجمعون كلمة الخلق على اله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده (٣) وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الاعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى، تقوّي ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ،

---

١) هو أن لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم (٢) لانه لا يصل الى المستحيل الذي يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذي هو مشرق الايمان (٣) أي يدعونه ويتقربون اليه بما شرع لهم من الدين لا بوسائط من الخلق تقربهم اليه كحجاب الملوك ووزرائهم

ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة [١]

يعودون بالناس إلى الالفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها [٢] قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم، يعلمونهم لذلك أن يرعي كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه، وأن لا يتجاوز في الطلب حده ،وأن يعين قويهم ضعيفهم ويعد غنيهم فقيرهم . ويهدي راشدهم ضالهم . ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذي يهدر له، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق مع بيان الحق الذي يبيح تناوله، واحترام الاعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود [٣] والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة الاقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء (٤)

---

١) أى كالزكاة (٢) أى المحبة (٣) ومنها المعاهدات الدولية مع الاجانب(٤)أى لا فرق فيه بين مسلم وكافر وقوي وضعيف وقريب وبعيد

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانيـة ، الى طلب الرغائب السامية ، آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع في محظوراته .

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به (١) مما لو صعب على العقل اكتناهه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظاراً لجزيل الاجر ، أو ارضاء لمن بيـده الامر ، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الانساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم (٢)

١) كالملائكة والجن وأحوال الاخرة

(٢) يعنى مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضوية بانواعها وأوربة كلها في حيرة من تلافي هذا الامر ويسهل تلافيه بالدين الاسلامي الذى فرض الزكاة وامر بالصدقة وهدى الانفس الى الرضا بما قسم لها طلبا لسعادة الآخرة مع بذل الجهد في السعي

ليس من وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس مما جاؤا له تعليم التاريخ. ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها . ولا ما استكن من طبقات الارض . ولا مقادير الطول فيها والعرض. ولا ما تحتاج اليه النباتات في نموها . ولا ما تفتقر اليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وانواعها وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم . فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك . يزيد من سعادة المحصلين . ويقضي فيه بالنكد على المقصرين . ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال . وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعي فيه وما يكفل التزامه الوصول إلى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

وأما ماورد في كلام الانبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا في أحوال الافلاك أو هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أممهم

لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والا ضاعت الحكمة في ارسالهم ولهذا قد يأتي التعبير الذى سيق الى العامة ، بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ماوجه الي الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتي يفهمه العامة . وهذا القسم أقل ماورد في كلامهم(١)

علي كل حال لايجوز أن يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ماميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان . بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان، مطالبا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ماتستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين

---

(١) أى إذا كان القسم الاول الذي يحتاج الى التأويل والتفسير قليلا كما تدل عليه كلمة (قد) فهذا أقل منه . . وا كثر كلامهم يفهمه جميع العارفين بلغتهم على تفاوت عظيم في الفهم يرفع بعضهم درجات في العلم

اعتراض مشهور

قال قائل إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعد للوثبة ، ولا ينتظر الا مجيء النوبة ، حشو جلودهم الظلم، وملء قلوبهم الطمع، عد أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سببا جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم في فهمه ، وتتفارق عقولهم في عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن ، فيسفكون دماءهم ، ويخربون ديارهم ، الى أن يغلب قويهم ضعيفهم ، فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين ، فها هو(ذا) الدين الذي تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة ، كان سبباً في الشقاق ومضرما للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الاثر ؟

نقول في جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه او يفهمه

ويغلو فيه ، أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء أنفسهم ، أوالخيرة من تبعتهم ، وإلا فقل لنا أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم ، والفيض الاعم ، ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها ، في أفرادها وجملتها ؟

أظن أنك لا تخالفنا في أن الجمهور الاعظم من الناس — بل الكل إلا قليلا — لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها معبر لما أدركوا منها الا خيالا لا أثر له في تقويم النفس ، ولا في اصلاح العمل . فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها . ثم انصب نفسك واعظا بينها في تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها ، فأي الطرق أقرب اليك في مهاجمة شهواتها ، وردها الى الاعتدال في رغائبها ؟

من البديهي أنك لا تجد الطريق الأقرب [١] في بيان مضار الاسراف في الرغب ، وفوائد القصد في الطلب ، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل النظر ، وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتي اليه من نافذة الوجدان المطلة على

(١) قوله في بيان الخ هو المفعول الثاني لقوله لا تجد

سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذي وهبه ما وهب ، الغالب عليه في أدنى شئونه اليه ، المحيط بما في نفسه ، الآخذ بأزمة هممه ، وتسوق اليه من الامثال في ذلك ما يقرب الى فهمه ، ثم تروي له ما جاء في الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله عنه اذا استقام ، وسخطه عليه اذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذي الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله الا أنه يرضي الله وأولياءه اذا أطاع ويسخطهم اذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم

كم سمعنا أن عيونا بكت وزفرات صعدت وقلوبا خشعت لواعظ الدين ، لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الادب وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم ، لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفي الشر من بينهم ، لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد في سير البشر ولا ينطبق على فطرهم ، وانما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد (١) ولا قيام للامرين الا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى.

(١) التقاليد هي العادات الموروثة . قاله المؤلف في الدرس

العوامل في أخلاق العامة بل والخاصة ، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم

قلنا إن منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردى في هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه — يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء ، ويعلم ذلك الباغي في رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ، ولكن وقوع هذه الامثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لاجله ـ كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة ، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة ، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء ـ فالدين هاد والنقص بعرض لمن دعوا الى الاهتداء به ، ولا يطعن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم اليه (٢ : ٢٦ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين)

ألا إن الدين مستقر السكينة ، ولجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون ، وبه ينظر الانسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة ، وإلى من دونه في المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الاوامر الالهية

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعي الاختيارية ، الدين قوة من أعظم قوى البشر وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه . وما عليهم في إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ، ويرجعوا إلى أصوله الطاهرة الاولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع إليه قوته . وتظهر للاعمى حكمته

ربما يقول قائل : إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأي القائلين باهمال العقل بالمرة في قضايا الدين . وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما اودعه من معارف وأحكام ، فنقول لو كان الامر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتدى به ، وإنما الذي سبق تقريره هو أن العقل

وحده لا يستقل بالوصول الى مافيه سعادة الامم بدون مرشد إلهي، كما لا يستقل الحيوان في إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا [١] كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف مايشتبه على العقل من وسائل السعادات. والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لاجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود اعمال

كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها إلى معرفتها، وانها آتية من قبل الله — وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد، فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتي به. فان جاء ما يوهم ظاهر ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه، وفي التفويض الى الله في علمه. وفي سلفنا من الناجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثاني

١) قال المؤلف في الدرس: هذه القضية مهملة تصدق بالبعض فلا ينا قضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج الى إدراكه

رسالة محمد ﷺ

ليس من غرضنا في هـذه الوريقات أن نلم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثـة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنـان السماء (١) الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، والى نار تنقض من سماء الحق على أدُم الانفس البشرية لتـأ كل ما اعشوشبت به من الاباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرءوسين الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارّين ، وبالجملة تثوب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التي سنها الله له (انا هدينا السبيل) (٢) ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها الى ما أعد في الدارين له ، ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر امعان وانصاف

---

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف في الدرس وكذلك قوله « والى نار » وقس على ذلك (٢) قال المؤلف في الدرس : المراد بالسبيل والطريق ، فطرة الله التي فطر الناس عليها

كانت دولتا العالم [١] دولة الفرس في الشرق ودولة الروماز في الغرب — في تنازع وتجالد مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الاحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حد مالا يوصف في قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل أمة . وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على مافي أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان القوي في اختطاف مابيد الضعيف، وفكر العاقل ، في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الامن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر اليها من ذوي

---

(١) بيان للكلمة التى استعارها من التاريخ قال في الدرس : وفاتني وقت الكتابة ذكر دولة الصين فانها كانت أيضا ممزقة بالحروب الاهلية ومع التركان وسنذكرها في طبعة ثانية

الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها ، ضلت السادات في عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهي الذي يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول ، فتهتدي العامة إلى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الاوهام ، ويهيئوا كسفاً من الاباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها في عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد

هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معايشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى في جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، آوت إلى بعض الاذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب، وانصرافه لاول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين في شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلا عليها فوق مارزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبي نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع، إلى المعامع، ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها، وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن، أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت ربط(١) النظام الاجتماعي قد تراخت

(١) الربط بضمتين جمع رباط وهو ما يربط به

عقدها في كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة (١)

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التي أظلت رءوس جميع الامم ؟ نعم كان ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد

***

في الليلة الثانية عشرة (٢) من ربيع الاول عام الفيل « ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيما ، توفي والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج (٣) وجارية

---

(١) يستدرك هنا أن العرب كانوا يفضلون جميع الامم بصفات وأخلاق كانت سبب ظهور المصلح الاعظم منهم كاستقلال الفكر، وقوة الارادة ، والشجاعة والنجدة ، والجود والايثار، وحماية الجار . اذ لم يستعبد والرؤساء دينيين ولاسياسيين. وماذكر من العيوب فيهم كوأد البنات لم يكن كله فاشيا في جميع بلادهم وقبائلهم ، وكان زنا الحرائر نادرا ويعد من انكر المنكرات

(٢) هذا هو المشهور الذى عليه الناس في تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوي وهو أحد الاقوال والاصح عند المحدثين أنه ولد في الليلة التاسعة منه (٣) قيل خمس، وقيل تسع

وبروى أقل من ذلك . وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب . وبعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريما غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معا ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الاوهام ، وأقرباء من حفدة الاصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا ، وفضيلة وأدبا ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالامين: أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الايتام من الفقراء ، خصوصا مع فقر القوّام ، فاكتهل ﷺ كاملا والقوم ناقصون، رفيعا والقوم منحطون، موحداً وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون (١) صحيح الاعتقاد وهم واهمون، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون

---

(١) استشهد المؤلف لهذا في الدرس بقصة اختلاف القبائل في وضع الحجر الاسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون، واتفاقهم على تحكيمه لامانته والتزامه الحق وما كان من اصلاحه بينهم بما أرضاهم كلهم

من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما إن كان من ذوي قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده ، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١) ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالا فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم ، حاش لله إن ذلك لهو الافك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل الى ماهدوا اليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين . وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

---

(١) كأمية بن أبي الصلت وعمرو بن نفيل

وجد شيئا من المال يسد حاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ماترفه معيشته » بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له ، وعون على بلوغه ماكان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا . ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول الى ماترغبه الانفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة ، والتحنث بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الاعظم في تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذي تولاه - إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهي (١) وتجلى عليه النور القدسي ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي ، في تفصيل ليس هذا موضعه لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت

---

(١) اي من غير شعور منه . ويظن الباحثون في سيرته (ص) من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين انه (ص) كان يستشرف للنبوة ويرجوها ولاسيما في عهد تحنثه في غار حراء . ولكن الله تعالى يقول (وما كنت ترجوأن يلقى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك) أي لكن التي اليك رحمة من ربك لم تكن ترجوها ، ويؤيد هذا المعنى خوفه (ص) على نفسه عند ما فجأه ملك الوحي في حراء كما ثبت في حديث الصحيحين

نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما مافعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم،جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، و بيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير . وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته . فقال هي أن ترد إلي مائتي بعير أصبتها لي، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه: أنا رب الابل وأما البيت فله رب يحميه.

هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام – وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش – فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكاأو يطلب سلطانا ؟ لامال لاجاه ، لاجند لا أعوان ، لاسليقة في الشعر ، لابراعة في الكتاب ، لاشهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة ، أو يرقى به الى مقام مابين الخاصة

ماهذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذي أعلى رأسه على

الرءوس ؟ ما الذي سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب لارشاد الامم ، وكفالته لهم كشف الغمم . بل وإحياء الرمم . ؟

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوّم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الالهية تنصره في عمله ، وتمده في الانتهاء إلى أمله ، قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحي الالهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل . ويكفيه مؤنة الدليل . ما هو إلا الوحي السماوي ، قام لديه مقام القائد والجندي . أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلي المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟

نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ـ وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الاقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ـ وفي الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه ـ أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به . صاح بذوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة ، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السماوات والارض ، والقابض على أرواحهم ، في هياكل أجسادهم

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى، فبين لهم بالدليل، وكشف لهم بنور الوحي، ان نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية، إلى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذي نفس انسانية، في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة -

وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل، واقتطعتهم دون الامل - مال على قراء الكتب السماوية، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد النكير على المحرفين لها، الصارفين لالفاظها إلى غير ما قصد من وحيها، اتباعا لشهواتهم، ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها، حتى يكونوا على نور من ربهم

ولفت كل انسان إلى ما أودع فيه من المواهب الالهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً واناثا عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية

الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وان الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الاكوان وشلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة، والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه ، وليست في الاعتقاد بوجوده ـ وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا مارسمته الشريعة وفرضه العدل . ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته إلى ماسخرت له بمقتضى الفطرة

دعا الانسان إلى معرفة انه جسم وروح ، وانه بذلك من عالمين متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وانه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الالهية من الحق

دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى ، وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة، والاخلاص للعباد، في العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ، ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم ، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رءوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته

ماهذه القوة في ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان في مظنة العجز؟ ماهذا العلم في تلك الامية؟ ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ان هو الا خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلما ، ذلك أمر الله الصادع، يقرع الآذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلف،

وينفذ إلى القلوب ، على لسان من اختاره لينطق به، واختصه بذلك. وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء، غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه ، نبي صدق الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة . وآية الحق الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق اليه الريبة أن النبي ﷺ كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا ، وتواترت أخبار الامم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه ، وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين إلى اليوم

كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ، ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة : نقب على الصحيح منها ، وغادر الاباطيل التي ألحقتها الاوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها

حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا في أحكامهم ، وما حرفوا بالتأويل في كتبهم - وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ، ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها، أو البعد بها عن الروح

الذي أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الامم

ثم جاء بعد ذلك[١] بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها في السبيل الامم[٢]

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على انه أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة ، وانه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب . وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب في القول والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الاذعان من العقول ، وتفانيهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الاطالة في بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه ، وتكذيبه في الاخبار عن الله ، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان

(١) هذه البعدية نوعية لازمانية أو هي كما قال الشاعر

قل لمن مات ثم مات ابوه ثم من بعد ذلك قد مات جده

٢) الامم بالفتح القريب

فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه ، استكباراً عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطيء آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم إلى ما لا تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدي ذلك كله الا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله[1] وكان في استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر انه مع طول زمن التحدي ، ولجاج القوم في التعدي ، أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلي على جميع الاحكام . أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم

(١) كان التحدي بعشر سور مثله ردا على الذين قالوا « افتراه » ولذلك وصفها بقوله (مفتريات) وقد بينت حكمة هذا العدد في تفسير الآية من سورة هود

معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي ، والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الامي صلوات الله عليه ؟

هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون كالخبر في قوله (٣٠ : ٢ غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وكالوعد الصريح في قوله (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية . وقد تحقق جميع ذلك ، وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته

ومن الكلام على الغيب فيه ما جاء في تحدي العرب به، واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله، مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها . ومع أنه لم يسبق له ﷺ السياحة في نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشري عادة عن الاحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة كالامة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ، ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي

التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الارض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته (١) وانما

١) يشير الى قوله تعالى (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار) الخ فالاخبار بالغيب فيه قوله ـ «ولن تفعلوا» وكان هذا بعد التصريح بعجز الانس والجن عن الاتيان بمثله

قد يقال ان بعض دعاة الضلال في بلاد الفرس والهند قد تحدوا مثل هذا التحدي في بعض ما كتبوه لاثبات ما ادعوه من الوحي اليهم أو الالوهية لانفسهم ، ولم نعلم أن أحداً تصدى لمعارضتهم .

ونقول في الجواب على تقدير تسليم الدعوى: ان أولئك لم يكونوا أولى شأن يبالى بدعوتهم وتحديهم بل من الموسوسين (كالباب والقاديانى مسيح الهند الدجال) وكان جل ماجاءوا به من ذلك أشبه باللغو منه بكلام العقلاء أو النبيين ، وما كان لعاقل أن يعارض المجانين ، ولا لبليغ أن يحاكي هذيان المحمومين والمصروعين ، ولا يزال يظهر أمثالهم فى تلك البلاد وغيرها ولا يبالى بهم أحد ، ولكن رزق بعضهم الحظوة في بلاد أعجمية ، أتوا فيها بسخافات جنوا بها على العربية ، وما ادعاه بعضهم من اعجاز بعض ما كتبه فهو ليس كتحدي الانبياء ، بل كمبالغة بعض الادباء والشعراء ، كالشيخ احمد فارس الذي قال في مقدمة كتابه « الساق على الساق » غلوا فى الفخر به

=

ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير هو الناطق على لسانه، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه

= عهدي الى ولدي أن يتحديا أسلوبه وبدفتيه يطيفا

على أنه يوجد أمثال لتلك الكتب السخيفة ، ولهذه الكتب اللطيفة ، ولو قيل لهم أو لبعض أشياعهم إنها مثلها أو أمثل منها في بابها لانكروا ومن ذا الذى يبالي بهم وباقناعهم ، وليس شأن القرآن مع العرب ثم مع سائر الامم كذلك . واعجازه من وجوه كثيرة في نفسه وفي كون من جاء به أميا بلغ الار بعين ومن المحال ان يبتكر احد من البشر في هذه السن علما لم يستعد له ولم يزاوله وكل من ذكرنا كانوا متعلمين وهو (ص) قد جاء بأقصى الغايات من اعلى العلوم لم يسبق له اكتساب شيء ما من الاستعداد له لاعلوم العقائد ولاالشرائع ولاالحكمة العملية ولا العلمية ولا التاريخ وفلسفته . . . ولا كان ممتازاً قبله بالبلاغة في الشعر والخطابة ولا الجدل ثم جاء هذا الكتاب بالغاية القصوى في هذه العلوم وتلك معجزات كثيرة غير معجزة بلاغته وأسلوبه البديع وغير ما فيه من انباء الغيب وكانت الدواعي لمعارضته قوية ، فانه زلزل سلطانهم الديني والدنيوي حتى قوضه من اساسه ولم يكن لهؤلاء الادعياء المتأخرين مثل هذا السلطان والتأثير العظيم ، على ان ادهاهم في الدعاية وهم البهائية يخفون كتابهم الذي سموه الاقدس بدلا من التحدي به ولو اظهروه لافتضحوا به

يقول واهم : ان العجز حجة على من عجز فان العجز هو حجة الافحام وإلزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات عنده فيفحم ، ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهتي الاستدلال فيهما، فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا «القوى البشرية » لأنه جاء بلسان عربي ؛ وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم في العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم، فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك، مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة ، دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن

البشر ، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ماورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ماأوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من أمره ، على ماسبق تعداده من الامور التي لايمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن ، وانفساح الاجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لارجل يعظ وينصح على العادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لايعرض عليه التغيير ، ولا يتناوله التبديل : أن نبينا محمداً ﷺ رسول الله إلى خلقه ، فيجب التصديق برسالته ، والاعتقاد بجميع ماورد في الكتاب المنزل عليه ، والاخذ بكل ماثبت عنه من هدي وسنة متبعة . وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقي علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الاسلامى وما دعا إليه على وجه الاجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة . والسر في كون النبي ﷺ خاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامي او الاسلام

هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ وعقله ومن وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل ولا ميل مع الشيع، وإني مجمله في هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد في التفويض لذوي البصائر أن يفصلوه، وما سندي فيما أقول إلا الكتاب والسنة القويمة وهدي الراشدين

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الادلة على أن للكون خالقا واحداً متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلمية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون (١١٢ : ١ قل هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ٤ ولم يكن له كفواً أحد) وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا في شيء منها ، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده (١) بما شاء من علم وسلطان

(١) يعني الانبياء

على ما يريد أن يسلطه عليه من الاعمال ، على سنة له في ذلك سنها في علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل ، ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا . وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون (١) وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة . ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا إلا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب (١٦ : ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون (٢) والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة

---

(١) اشارة الى قوله تعالى (٢١ : ٢٦ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ((٢) قال المؤلف في الدرس : لعل في القرآن تعبر دائما عن الاستعداد أي جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر أو قال ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها أي وهذا ما خلقت لاجله بقرينة لا تعلمون شيئا قال والافئدة العقول أين كان محلها سواء اكان الدماغ أو القلب

فيما كان الانعام بها لأجله — دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها

وأما ما تتحير فيه مداركنا، وتقصر دونه قوانا، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرفه من القوى المسخرة لها، وكان لا بد من الخضوع له والرجوع إليه والاستعانة به — فذلك (١) انما يرد إلى الله وحده، فلا يجوز أن تخشع إلا له، ولا تطمئن إلا إليه. وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات، ولا في غفران أفاعيلها من السيئات. فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل، أو العبارة واللفظ، لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة — تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التي لا تنفك

---

١) قوله فذلك الخ الجملة خبر قوله وأما ما تتحير الخ وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية في الكون هو مما أودع في غرائز البشر ولكن هذه القوة هي لله وحده فلا يجوز أن يتوجه احد الى غيره فيما هو غير معتاد من الاسباب المشتركة بين البشر ولو كان نبيا أو وليا.

عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم(١) وارتفع شأن الانسان ، وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة ، بحيث أصبح لا يخضع لاحد الا لخالق السموات والارض ، وقاهر الناس أجمعين . وأبيح(٢) لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم (٦ : ٧٩ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) وكما أمر رسول الله ﷺ أن يقول (٦ : ١٦٢ ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي (٣) لله رب العالمين (١٦٣) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من

---

١) ذكر المؤلف في الدرس هنا مفاسد المنتسبين الى طرق الصوفية واختلافهم فليتذكر من يعلم (٢) عبر بأبيح للاشارة الى ان ذلك كان محظورا عند الامم السابقة فلم يكن يباح لاحد ان يتوجه الى الله بدون واسطة الرئيس الديني فيكونوا حنفاء . والحنيف المائل عن الباطل الى الحق الملتزم له . فمن يتوجه الى غير الله ليقربه الى الله فليس بحنيف (٣) أي ان صلاتي وجميع عباداتي وحياتي وشئونها ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده لا أتوجه فيه الى مرضاة غيره ولا استعين أحدا على شيء منه استعانة معنوية بل إياه أستعين ، مهتديا بما شرعه من الدين

القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره، سواء كانت ارادة بشرية(١) ظن انها شعبة من الارادة الالهية ـ أو انها هي ـ كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها . وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الاسرار ، ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله ، الزاعمين انهم واسطة النجاة ، وبأيديهم الاشقاء والاسعاد ، وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين

صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حراً من العبودية لكل ماسواه ، فكان له من الحق ماللحر على الحر ، لاعلي في الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين ، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته ، لا بعمله وخدمته

---

١) قال المؤلف كارادة القديسين والكهنة الذين يأتي ذكرهم مرتبة

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت (٧:٩٩ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره (٨) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (٣٩:٥٣ وأن ليس للانسان إلا ماسعى) وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباساً وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته ، أو ماتعدى ضرره إلى غيره ، وحدد له في ذلك الحدود العامة ، بما ينطبق على مصالح البشر كافة ،فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم إلا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ماكان له من دعائم وأركان في عقائد الامم(*)

(*) ذكر المؤلف منها في الدرس ثلاثا : ١ـ احترام المرء لآبائه ومربيه ٢ـ اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين ٣ـ الحذر من انكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه اذا حاول أن يخرج عماهم عليه ، أي فمن لم يحترم نفسه واستقلال فكره ويمرن نفسه على الاخذ بما يعتقد انه الحق وان خالف الآباء والمعلمين والأحياء والاموات غير المعصومين من الخطأ فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد وسيأتي في كلامه مايهدم تلك القواعد والاركان

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق ، خاصت إليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « ثم فان الليل حالك ، والطريق وعرة ، والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والازواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والاعلام ، — أعلام الكون ودلائل الحوادث — وانما المعلمون منبهون ومرشدون ، وإلى طريق البحث هادون

صرح في وصف أهل الحق بأنهم (٣٩ : ١٨ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الابناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ،

ونبه على أن السبق في الزمان ، ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الاحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ، مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم (٦ : ١١ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وإن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الاديان في اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم ، وقولهم (٣١ : ٢١ بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ٤٣ : ٢٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون)

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده إلى مملكته ، يقضي فيها بحكمه وحكمته ، مع الخضوع في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ، ولا حد للعمل في منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما استقلال الارادة واستقلال الرأي والفكر. وبهما كملت له انسانيته، واستعد لان يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها. وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم: إن نشأة المدنية في أوربا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم، وأن لهم حقا في تصريف اختيارهم وفي طلب الحقائق بعقولهم، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح. وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام، ومعارف المحققين من أهله في تلك الازمان.

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة. ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها وأن لا يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمى اليه. ثم

غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلا ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء في الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبداً بالاصوات والحروف(١) فذهبوا بحكمة الارسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال(٢:٧٨ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون*٦٢:٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

أما الاماني ففسرت بالقراءات والتلاوات أي لا يعلمون منه إلا أن يتلوه ، وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا . وإذا عنّ لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف في التأويل وقال هذا

١) أي ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند ألفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده ، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين مصداقا لما أنبأ به الرسول (ص) واما تعبدنا بالقرآن فهو لاجل تدبره والاهتداء به ثم لاجل حفظه وتبليغه فهما مقصدان

من عند الله (٢:٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا) وأما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعد ما حملوها(١) فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الالفاظ ، ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بانزالها ، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به : مثل الحمار الذي يحمل الكتب، ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب ، وقصم الظهر وانبهار النفس ، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سبباً في إسعادهم وهو التنزيل والشريعة، أصبح سبباً في شقائهم بالجهل والغباوة.

وبهذا التقريع ونحوه، وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين ـ مما هو منتشر في القرآن العزيز ـ فرض الاسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين ،

---

١) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم: كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى كما حكاه في القرآن (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها)

لا تختص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات .

جاء الاسلام والناس شيع في الدين، وإن كانوا - إلا - قليلا في جانب (١) عن اليقين، يتنابذون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون ، فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها في سبيل الله أقوى سبب . أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد قال الله تعالى (٣: ١٩ إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ٣ : ٦٧ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ٤٢ :١٣ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ٣: ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وكثير من ذلك يطول إيراده في هذه الوريقات . والآية الكريمة - التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم في علم

(١) أي بمعزل ، وقد تكرر هذا الاستعمال في كلامه

ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته

نص الكتاب على أن دين الله في جميع الازمان هو إفراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية،وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر [1] وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله،ودعا العقول إلى فهمه منه ، والعزائم إلى العمل به ، وأن هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف،وهو الميزان الذي توزن به الاقوال عند التناصف،وإن اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته،ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشر به ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها ، وسار الكافة في مراشدهم إخوانا بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين

---

١) قوله مما هو الخ صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها والسياق استئناف لبيان وحدة الدين المجملة فيما قبله فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج، المنصوص في قوله تعالى (٥: ٤٨ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) مع الالمام بحكمة ذلك ، وهو من الحقائق التي لم يسبقه اليها سابق

وأما صور العبادات وضروب الاحتفالات ممـا اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ماعلم فيه الخير للامة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته ـ وهو رب العالمين ـ بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئا ، إلى راشد في عقله ، كامل في نشأته ، يخرق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم ، فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ من الـكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو قائما على ماقررته الفطرة الالهية في شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها ، وإن اختلف أهل النظر في بيان ماتفرّع منه في علـوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا نطيل الكلام فيه ههنا

(ترقي الاديان بترقي الانسان ، وكمالها بالاسلام) (*

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية للناشيء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ماوقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه : وأن يتناول بذهنه من المعاني مالا يقرب من لمسه ، ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرته أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه، في همشاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل الى فمه بطعام ، أو تسنده في قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان ، أو يُرقى اليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن ، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره ،

---

*) العنوان للناشر وهو لتنبيه ذهن القارىء فان الموضوع من أهم حكم الدين وحجة علمية اجتماعية على نسخ الاسلام لما قبله من الشرائع وعلى كونه الدين الاخير الذي لا يحتاج البشر الى الانبياء والوحي السماوي بعده ، وقد اشتدت الحاجة الى بيان ذلك في هذا العصر ، ولم يسبق الاستاذ الامام اليه احد فيما نعلم

فأخذتهم بالاوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة . وطالبتهم بالطاعة، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلي الغاية وان لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم إلى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم،وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه(١)

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت،وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الايام آلاما ، وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الانفس بنفث الحوادث . ولقن الكوارث، شعوراً أدق من الحس وأدخل في الوجدان ، لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف.ويناجي المراحم ، ويستعطف الاهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ، ويقتضي من صاحب الحق ، أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء في وجوه الاغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسن للناس سننا في عبادة الله تتفق مع

(١) هذه صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية ، وما يليها فهو صفة المسيحية

ما كانوا عليه ، وما دعاهم اليه . فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ بأقواله ، ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ، ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال ، وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الاباطيل .

هذا كان شأنهم في السجايا والاعمال : نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما في العقائد فتفرقوا شيعاً ، وأحدثوا بدعا ، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان ، والحظر على الافكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة ، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وان الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وأفضى الغلو في ذلك بالانفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانساني ، وهي نزعة الحرب بين أهل الدين ، للالزام ببعض قضايا الدين ، فتقوض الاصل ، وتخرمت

العلائق بين الاهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

***

كانت سن الاجتماع البشري قد بلغت (١) بالانسان أشده ، وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده ، فجاء الاسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والاحساس في إرشاد الانسان إلى سعادته الدنيوية والاخروية ، وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله في جميع الاجيال واحد ، ومشيئته في إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وان رسم العبادة على الاشباح ، إنما هو لتجديد الذكرى في الارواح ، وان الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر ، كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الامرين طهراً مطلوبا ، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وان ما فرض من

١) ذكر الاستاذ الامام ضمير السن هنا وفي تفسير جزء عم سهوا ثم إنه تنبه لكون السن مؤنثة فأمر بتصحيحها في جزء عم بعد طبعه ونسي تصحيحها هنا فصححناها اتباعا لتصحيحه هنالك وان كان التأنيث مجازيا

الاعمال ، إنما هو لما أوجب من التحلي بمكارم الاخلاق ٢٩:٤٥ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر * ٧٠ : ١٩ ان الانسان خلق هلوعا ٢٠ إذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا ٢٢ إلا المصلين) ورفع الغني الشاكر ، إلى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد ، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل ان في ذلك رضاء الله وشكر نعمته ، وان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول إلى خير العقبى ، إلا بالسعي في صلاح الدنيا

التفت إلى أهل العناد فقال لهم (٢:١١١ و ٢٧:٦٤ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على مازعزعوا من أصول اليقين ، ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن

ومن المعلوم ان المجانسة هي رسول المحبة وعقد الالفة ، والمصاهرة

إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف . وأقل مافيها محبة الرجل لزوجته وهي على غير دينه ، قال تعالى (٣٠: ٢١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ، ونص على أن لهم مالنا وعليهم ماعلينا، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد أداء الجزية*) عن كل إكراه في الدين ، وطيب قلوب المؤمنين في قوله (٥: ١٠٥ ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي أحسن، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي ضرب من ضروب

---

*) فيه أن النهي عن الاكراه في الدين نزل قبل سورة براءة التي شرع فيها أخذ الجزية فالاكراه في الدين ممنوع في الاسلام مطلقا ولكن اذا أراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم أو تهديدهم لدعوتهم مثلا وجب عليهم أن يدعوهم أولا الى الاسلام بالاختيار فان أسلموا حرم قتالهم، وان لم يسلموا دعوهم الى اداء الجزية ان كانوا من اهلها كأنهم يقولون لهم إنكم الجأتمونا الى حربكم فنحن نقدم عليها الا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية، وهذا لا يمنع من الصلح اذا اتفق عليه الفريقان

القوة في الحمل على الاسلام ، فان نوره جدير أن يخترق القلوب .
وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء إلا بعد
القيام به ـ كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين
ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم إلى الخير في جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية ، وقرر لكل
فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلقة ، وشرف اندراجها في النوع
الانساني في الجنس والفصل والخاصة . وشرف استعدادها بذلك
لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها ، على خلاف
مازعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل
الخسة على أصناف زعموا انها لن تبلغ من الشأن أن تلحق
غبارهم (١) فأماتوا بذلك الارواح في معظم الامم ، وصيروا أكثر
الشعوب هياكل وأشباحا

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على
ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه ، وتلتئم مع المعروف

---

١) هذا الامتياز لا يزال يدعيه أكثرهم ولاسيما الافرنج وأفحشه
كون الهندوس ٣ طبقات الطبقة السفلى تعد رجسا عند من فوقها
لا تشاركها في اجتماع ولا عبادة ولا مخالطة

عندالعقول السليمة — فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهي الذي يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول، فتخشع له القلوب ، وتستخذي له النفوس ، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمي الجمرات ، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير (١) وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير

وأما الصوم (٢) فحرمان يعظم به أمر الله في النفس وتعرف

---

(١) شبه الغزالي ذلك باختلاف مقادير الدواء المركب من اجزاء مختلفة بعضها كثير وبعضها قليل وكون هذا التفاوت في القلة والكثرة يفوض الى علم الطبيب الذي وصف الدواء وأن المريض يكفيه الثقة بعلمه والانتفاع بدوائه . فاذا قال بعد ذلك أنا لا أقبل منه الدواء الا بعد ان اعلم فائدة كل جزء منه وفائدة مقداره — كان احمق ومات بدائه ، وان ثقة المؤمن بعلم الله وحكمته أقوي واكمل من كل ثقة بغيره من طبيب وصيدلي وسواهما . وزد علي ذلك ثبوت فائدة الصلاة والحج وسائر العبادات في تطهير النفس من الشرور ونهيها عن الفحشاء والمنكر . .

٢) كان ينبغي ان يوضع هنا حكمة الزكاة ولكنه اخرها الى مناسبة اخري وستأتى في ص ١٨٠

به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الاحسان الالهي في التفضل بها (٢ : ١٨٤ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون(١))

وأما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته ، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ــ ولو في العمر مرة ــ يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير ، والصعلوك والامير ، ويظهر الجميع في معرض واحد مكشوفي الرءوس متجردين عن المخيط ، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين ، واستقرار يقينهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع . وهذا الاذعان الكريم في كل عمل من أعمال العبادات الاسلامية مقرون بما يدل على التنزيه، وتقديس الله عما يوهم التشبيه (٢)

---

١) راجع تفسيرها وقول المؤلف فيها في ص١٥٧ ج٢ من تفسير المنار طبعة أولى و ١٤٤ طبعة ثانية

٢) عبارة الرسالة الاولى هنا « وشعار هذا الاذعان الكريم في كل عمل «الله اكبر» وكان المؤلف صحح العبارة في حاشية نسخة الدرس هكذا «وهم مع هذا الاذعان الكريم في كل عمل مقرون بما ينزه الله عن التشبيه والتجسيم» ثم صححها ثالثة في الجدول بما اثبتناه هنا.

أين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين، يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم انما يجري أمرها على السنن الالهية (١) التي قدرها في علمه الازلي لا يغيرها شيء من الطوارىء الجزئية، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها، بل ينبغي أن يحيا ذكره عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبي ﷺ « إن الشمس والقمر آيتين من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلي » وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضي فيه إلا العناية الازلية على السنن التي أقامته عليها.

ثم أماط الاسلام عن حال الانسان في النعم، التي يتمتع بها الاشخاص أو الامم، والمصائب التي يرزءون بها، ففصل بين

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى ﴿٣: ١٨٢ قد خلت من قبلكم سنن﴾ وما قاله المؤلف في تفسيرها في الجزء السادس من المجلد الحادي عشر من المنار أو في ص ١٣٨ من جزء التفسير الرابع

الامرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما . فأما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة ، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه، فكثير منها كالثروة والجاه ، والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة ، والضعف والفقد ، ربما يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى ، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم (٢ : ١٥٦ إنا لله وإنا إليه راجعون) فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل، مما يكون له دخل في هذه الرزايا ، ولا في تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة ، كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم، وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغلب ، والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر

وأما شأن الامم فليس على ذلك ، فان الروح الذي أودعه الله

جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الاهواء ، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الامانة ، واستشعار الاخوة، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة (٣:١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها)[١] ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها: يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره. وتبعته الراحة إلى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل (٢) وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون (١٧:١٦ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقي من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الاكرم ، فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر ، والصبر

---

١) راجع تفسير المؤلف لهذه الآية في الجزء الرابع من تفسير المنار

(٢) الصواب في استعمال الاستبدال والتبدل أن تقرن الباء بالمبدل منه

والشكر (١٣:١٣ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)
(٣٣:٦٣ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)
وما أجل ماقاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه « اللهم انه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة »

على هذه السنن جرى سلف الامة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة، كان غيره يظن أنه يزلزل الارض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئا[1]

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال (٩:١٢٤ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ثم فرض ذلك في قوله (٣:١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا

(١) يعني ان المسلمين لما كانوا في القرون الاولى يجرون على سنن الله تعالى في اسباب السيادة والقوة كان بعض الشعوب كالنصارى مغرورين بدينهم يظنون انهم ينالون كل شيء وتخرق لهم العوائد ببركة القديسين ودعائهم، ثم انقلبت الحال كما ترى

كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ١٠٦ يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم؟فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ١٠٨ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ١٠٩ ولله ما في السموات وما في الارض وإلى الله ترجع الامور)

ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرّطين ، ويحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال(٣: ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[١] فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان في هذه الآية مع أن الايمان هو الاصل الذي تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريفا لتلك الفريضة وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض ، بل تنبيهاً على انها حفاظ الايمان وملاك أمره ، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ،

١)راجع تفسير هذه الآية والآيات التي بعدها وماقاله المؤلف فيها في الجزء الرابع من تفسير المنار

فقال (٥:٧٨ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه (١)

***

فرض الاسلام للفقراء في أموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الغني على الفقير، سداً لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السبيل، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير، وكثيراً ما جعله عنوان الايمان، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة، ومحص صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين . وأي دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا؟ (٥٧:٢٢ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

أغلق الاسلام بابي الشر، وسد ينبوعي فساد العقل والمال

١) راجع تفسيرها في جزء التفسير السادس

بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريمًا باتا لا هوادة فيه

لم يدع الاسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أمًّا من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع الانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر، واستقلال العقل في النظر ، ومابه صلاح السجايا واستقامة الطبع، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل ، وسوقها في سبل السعي ، ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد، وذخيرة لا تفنى

هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا قد تبين الرشد من الغي ،ولم يبق إلا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين

لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد ﷺ وانتهت الرسالات برسالته ، كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده، واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم إلى أن لاسبيل بعد لقبول دعوة بزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع ، أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب (٣٣ : ٤١ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما)

انتشار الاسلام

﴿ بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ ﴾

كانت حاجة الامم إلى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عند ما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب ، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل : أوذي الداعي ﷺ بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له ، وحُرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمشهدها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم ، فتجري من

مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين، ﴿ ٨ : ٣٩ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وماجاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقير للاغنياء ، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الاباطيل ، والرشد في ظلمات الاضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها ، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي ﷺ قد أبلغ رسالته بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزءوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه . وبعث إليهم البعوث في حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلبا للأمن وإبلاغا للدعوة ، فاندفعوا

في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الامم في قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبها وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا ، عندما كان يعدها الاوربيون ضعة وضعفا

رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ، ورد الاموال المسلوبة إلى

أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا (١)

وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال (٢)

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في أسبانيا

اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا

---

١) لقد كان هذا في الدولة العثمانية والاقطار الخاضعة لسيادتها كمصر بنفوذ دول الافرنج فيها وهو مخالف للشريعة الاسلامية ومخل بشرف الدولة (٢) شكا اليه عامله بمصر ذلك فأجابه : ان محمداً (ص) بعث هادياً ولم يبعث جابياً . ويا له من جواب ممن آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب

فراراً منها بدينهم إلى بلاد الاندلس وغيرها.

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه — فما الذي أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟

ظهور الاسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة — حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدها[1].

---

١) تراجع هذه البشارات في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٦ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) في الجزء التاسع من تفسير المنار.

فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد في مجاحدته، فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين

أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ماحركهم الى النظر فيه، فوجدوا لطفا ورحمة ، وخيراً ونعمة ، لاعقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق ، رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلي ويلحقها بالملكوت الاعلى ، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم ، وهو مع ذلك لايمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة ، فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حسنت التوبة ، وكملت الاوبة

تبدت لهم سذاجة الدين عند ماقرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامليه اليهم ، وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه وما تكفي جولة نظر في الوصول إلى علمه *) فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه

*) الاول كالجمع بين التثليث والتوحيد والثاني عالم الغيب غير المحال

كانت الامم تطلب عقلا في دين فوافاها ، وتتطلع إلى عدل في إيمان فأتاها ، فما الذي يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها ، والمبادرة إلى رغيبتها ؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الادنين متى عرضت دونها شهوات الاعلين ، فجاء دين يحدد الحقوق ، ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير ، وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً ، فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته ، رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه (١) عدل يسمح ليهودي أن يخاصم مثل علي بن أبي طالب أمام القاضي وهو من نعلم من هو ! ويستوقفه معه للتقاضي إلى أن قضي الحق بينهما

هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذي حببه إلى من كانوا أعداءه ، ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه.

---

(١) وقع هذا لامرأة قبطية مع أمير مصر وفاتحها عمرو بن العاص والخليفة الذي أشكاها منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض)

غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ، ثم لا يكون إلا طائفا يحل ثم يرتحل ، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ماألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم ، لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد، خصوصا في الصين وفي أفريقيا ،ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها ، ولا داعي أمامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه وعدالة شريعته ، وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ماهو أمس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وأدعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً ، والى العقول مخلصا ، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة ، والاوقات الطويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه

هذا كان حال الاسلام في سذاجته الاولى ، وطهارته التي أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض إلى اليوم

***

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته

سبحانك هذا بهتان عظيم ! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواتراً صحيحا لا يقبل الريبة في جملته ، وإن وقع اختلاف في تفصيله ، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم ، وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا (١) فقد عمل في الرقاب للاكراه على

(١) هذا بيان لما فعله الافرنج من نشر النصرانية بالاكراه وقهر القوة العسكرية قبل الاسلام وبعده وهو الذي اتهموا به المسلمين من بعد زورا وبهتانا

الدين والالزام به ، مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة ،مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ، وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد ، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ،مع غيرة تفيض من الافئدة ، وفصاحة تتدفق عن الالسنة ، وأموال تخاب ألباب المستضعفين، إن في ذلك لآيات للمستيقنين

***

جاءت حكمة الله في أمر هذا الدين : سلسبيل حياة نبع في القفار العربية ، أبعد بلاد الله عن المدنية ، فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها ، وتعلو أهل الارض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله في الخلق :لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغي، قائمة في هذا العالم إلى أن يقضي الله قضاءه فيه . إذا ساق الله ربيعا إلى أرض

جدبة ليحيي ميتها ، وينقع غلتها ، وينمي الخصب فيها ، أفينقص من قدره ان أتى في طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله(١) فلم يكن بين أهل تلك الديار و بينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا ، فوقف وقفة القائد خذله الانصار ، وكاد يتزحزح إلى ما وراءه ، لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت إلي ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، وكانوا وثنيين ، جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا . وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم : جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة(٢) لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين

---

١) بيان لما فعله الاسلام من هداية شعوب الاعاجم في أثر بيان مافعله فى العرب

٢) بيان للحروب الصليبية لابادة الاسلام من الشرق وينبغي لكل مسلم أن يعرف تفصيلها وما استفاده الاوربيون من فضائل الاسلام التى حملتهم على إصلاح أمور دينهم ودنياهم ، وأكثر المسلمين يجهلون هذا

والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا إلى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها

لِم جاءوا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق ، أو يستولي سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية ، جاء من الملوك والامراء وذوي الثروة وعلية الناس جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء في أرض المسلمين ، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها، تنظر في أحوال المجاورين، وتلتقط من أفكار المخالطين، وتنفعل بما ترى وما تسمع، فتبينت أن المبالغات التي أطاشت الاحلام ، وجسمت الآلام ، لم تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حرية في دين ،وعلماً وشرعا وصنعة مع كمال في يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادي عليه ، ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت إلى

بلادها، قريرة العين بما غنمته من جلادها ، هذا إلى ما كسبه السفّار من أطراف الممالك إلى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ، ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا، وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين ، والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا في معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الاصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته وجاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد[1] إلى ما يتفق مع عقيدة الاسلام إلا في التصديق برسالة محمد ﷺ وان ماهم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى ، إلا في صورة العبادة لاغير

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها، وتصلح من شئونها ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة، التي تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الازمان الغابرة

هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت

١) هم طائفة الموحدين وا كثرهم من الانكليز والاميركان

من كل زوج بهيج ، جاء القوم ليبيدوا، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا، ظن الرؤساء أن في إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم ، فباءوا بوضوح شأنهم ، وضعضعة سلطانهم . وما بيناه في شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم (١) والى الله عاقبة الامور

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه (٦: ١٦٠ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

اذا كان الاسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا؟ اذا كان مولياً وجه العبد ، وجهة الذي خلق السموات والارض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ، ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟

---

١) قد أورد المؤلف الشواهد على هذا في كتابه (الاسلام والنصرانية)

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر في الاكوان وأطلق له العنان ، يجول في ضمائرها بما يسعه الامكان ، ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضي الله بالجهل ، واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع؟

مابالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ مابالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل ، أصبحوا مثلا في القعود والكسل ؟

ماهذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين مادعاهم اليه فتركوه ؟

اذا كان الاسلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأي القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول؟

اذا كان الاسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا تغنيا ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنياً ؟

اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوهما إلى اغلال أي أغلال ؟

اذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم ؟

اذا كان الدين في تشوف إلى حرية الارقاء ، فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار ؟

اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟

اذا كان قد حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن ، والنفس والبدن ؟

اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم(١) و(ان الانسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وأنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم (٢) وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره . فما بالهم لايتناصحون ولايتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر، ولا يتناصحون في خير ولاشر ؟ بل ترك كل صاحبه، وألقى حبله على غاربه، فعاشوا أفذاذاً ، وصاروا في أعمالهم أفراداً، لايحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه، وكأنه لم تجمعه معه صلة، ولم تضمه إليه وشيجة

١) ان هنا مكسورة حكاية لنص القرآن. اي وصرح بهذا النص(٢) هو مضمون حديث مرفوع رواه البزار والطبراني في الاوسط عن ابي هريرة

ما بال الابناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الامهات؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب؟ أين الحق الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء . وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء؟

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى في الشرق، وأهله في ظلمات لا يبصرون، أصح هذا في عقل؟ أو عهد في نقل ؟ ألم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات، وقواعده وأحكامه ترهات ؟ ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار ، وبعداء الانظار ، والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا انفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها ، ويرون العمل فيها (١) عبثاً في الدين والدنيا، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه في ذلك قد هجر منكراً ، وترفع عن دنيئة ، فمن وقف على باب العلم من المسلمين ، يجد دينه كالثوب الخلَق يستحي أن يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده ، يرى العقل جنة ، والعلم

(١) أي في ضمن ما أرشدت اليه من النظم والفنون والصناعات

ظنة ، أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين، على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء في الايراد قليلاً من كثير . وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما [١] من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به بمجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم ،فذلك هو الاسلام.وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل ، من أحسن في استعماله والاخذ بما أرشد اليه، نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الاعمى إنكاراً . ولا الاصم إعراضاً ، وغاية ما قيل في الايراد أن أعطى الطبيب المريض

(١) كالشاطبي في كتابه الاعتصام والبركوي في كتابه الطريقة المحمدية

دواء فصح المريض (١) وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون . من مثل مرضه ، وهو في يأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدل سنة الله في شفاء أمثاله

كلامنا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بيناه وأما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر إن شاء الله (٢)

التصديق بما جاء به النبي محمد ﷺ

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا، وانه انما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره، والايمان

١) ان هذا المريض الذي شفي من أمراض الجهل والتقليد والرق للملوك ورؤساء الدين قد أنهكته أمراض أخري اشتدت عليه في هذا العصر منشؤها عبادة المادة وفوضي الدين والآداب واباحة الفواحش ولا علاج له إلا بدواء الاسلام وأين يجده وأهله يقلدونه في تلقيح أنفسهم بجميع سموم أمراضه على أمراضهم الاولى

٢) راجع في هذا كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية له رحمه الله فقد وفى فيه بوعده هذا ،وهو كتاب لا يستغني عن قراءته مسلم فى هذا العصر ، بل قال احد اولي البصيرة من المسلمين انه ينبغي قراءته في كل سنة ولو مرة واحدة . وان قارئه ليجد فيه شرحا لكثير من المسائل المجملة في هذه الرسالة

بما جاء به ، ونعني بما جاء به ما صرح به في الكتاب العزيز، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس - ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم في جنة ، وعذاب في نار، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف

ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ماهو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ماهو قطعي بظني. وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الالهي عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر، وجب صرفه عن الظاهر، إما بتسليم لله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد. أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة(١)

(١) الواجب أن يحمل الخبر على معنى يتفق مع التنزيه الثابت بالنقل والعقل تدل عليه أساليب اللغة مع العلم بأن كل ماوصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذي وضعه الناس لخلقه فهو كاصطلاحات العلوم والفنون فلا يقتضي أن يكون معناه في وصف الله تعالى عين معناه في وصف الخلق من كل وجه ، بل يكفي أن يكون مناسبا له ، فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه ليست من الاحوال والاعراض النفسية ، ويده وأصابعه ليست من الجوارح الجسمية وخلقه ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات البدنية ، وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية ، وهذا معنى قول السلف : الاستواء معلوم والكيف مجهول. ومنه مسألة الرؤية الآتية وقاعدتهم في ذلك أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل كما تقدم في الكلام على الصفات

أما أخبار الآحاد فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها. وأما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة في صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن في إيمانه عدم التصديق به. والاصل في جميع ذلك أن من أنكر شيئا (١) وهو يعلم أن النبي ﷺ حدث به أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها، ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة، وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل (٢ من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي عليه في ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الاعمال والعقائد، بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة في التكاليف، كان مؤمنا حقا وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله (٣) فان الشرائع الالهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة، والاصل في ذلك أن الايمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء به على ألسنة الرسل

---

١) أي من أمر الدين الذي هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى

٢) أكثر السنن المتواترة هي العملية كصفة الصلاة والحج وأما الاحاديث القولية المتواترة فقيل انها لا تبلغ أقصى جمع القلة

٣) يعني ان التأويل بهذه الشروط لا ينافي صحة الاسلام فلا يباح تكفير صاحبه إلا انه لا يقتدى به فيه. وهذا مذهب اهل السنة والجماعة

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه (الاولى) جواز رؤية الله تعالى في الآخرة (والاخرى) جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الانبياء: من الاولياء والصديقين

أما الاولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لامجال معه للتنازع، فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لاتكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة، بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة، أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا (١) وهو ما لا يمكننا معرفته وإن كنا

(١) الادراك في الحقيقة للروح وانما الحواس آلات لها وقد ثبت بالتجارب القطعية لدى علماء الشرق والغرب في هذا العصر أن من الناس من يبصر ويقرأ وهو مغمض العينين فيما يسمونه قراءة الافكار ويبصر بعض الاشياء دون بعض في العمل النومي، ومنهم من يبصر الشيء مع الحجب الكثيرة والبعد الشاسع كمن أبصر وهو بمصر بقريبه في الاسكندرية خارجا من داره إلى المحطة — إلى آخر ما تقدم في حاشية ص ١١٣ فاذا كان هذا قد ثبت في هذا العالم على خلاف المألوف في الرؤية لكل الناس — فهل يليق بعاقل أن يستشكل ما هو اغرب منه وأبعد عن المألوف في الجنة وهي من عالم الغيب المخالفة سننه ونواميسه لعالم الشهادة. وهل كان استشكال منكري الرؤية إلا بسبب =

نصدق بوقوعه متى صح الخبر ، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع إلى قول خصومهم ، ولكن مُني الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

وأما الثانية فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحاق الاسفرايني من أكابر أتباع أبي الحسن الاشعري(*) وعلى ذلك المعتزلة إلا أبا الحسين البصري فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الاشاعرة . واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات ، وأولوا ما جاء في الآيات : أما ان ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن

= قياس عالم الغيب على عالم الدنيا في الرؤية والمرئي؟ وهو قياس باطل ، وبطلانه في المرئي أظهر . وقد حررت هذه المسألة في تفسير المنار بتفصيل أثري سلفي عصري طويل فيراجع في تفسير الآية ١٤٢ من سورة الاعراف ص ١٢٢-١٧٨ ج ٩ تفسير

(*) وكذلك الحليمي من أكابرهم

الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها

وأما مااحتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه، لان ما في قصة مريم وآصف (١) قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الانبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله في أنبياء ذلك العهد إلا قليلا .

وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه، وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز . فصار البحث في جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث في متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير، وفي مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الالهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر .

---

(١) قال بعض المفسرين في تفسير (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) إنه وزير لسليمان اسمه آصف بن برخيا فجاراهم المؤلف في ذلك تنزلا ولكن هذا لم يثبت في قرآن ولا حديث مرفوع وانما هو من الاسرائيليات. وقال بعضهم إنه سليمان نفسه ورجحه النيسابوري وقال بعضهم انه جبريل وبعضهم انه ملك آخر . وجملة القول أن إحضار العرش معجزة لنبي الله سليمان عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات

كذلك ما قالوه في مسألة الرزق عند مريم وانه فاكهة الصيف في الشتاء وعكسه لم يصح فيه حديث مرفوع فهو من الاسرائيليات كما بينته في تفسير المنار

وأما مجرد الجواز العقلي وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الالهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء ، وانما الذي يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لايجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الاسلام ، فيجوز لكل مسلم باجماع الامة أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان ولا يكون بانكار هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنة صحيحة ، ولا منحرفا عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة .

أين هـذا الاصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هـذه الايام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الاولياء ، وتتفاخر فيها همم الاصفياء (١) وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون .

---

١) بل يزعمون ان هؤلاء الاصفياء ولاسيا الموتى المشهورين كالذين يسمونهم الاقطاب الاربعة هم المتصرفون في شئون العالم كله وانهم يقضون حاجات الذين يدعونهم من دون الله أومع الله بالخوارق الممنوحة لهم من نفع وضروغير ذلك ! (لا إله إلا الله وحده لاشريك له)

خاتمة

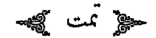
(بسم الله الرحمن الرحيم)

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) وقد فسر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة

(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رَهقا * وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا * وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا * وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً * قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً * قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً * قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً * إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم

خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عددا * قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا)

صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخسىء الشيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم



تفسير المنار

صدر من هذا التفسير أحد عشر جزءاً ، وقد اتفق من قرأه من العلماء على أنه قد يغني عن كل التفاسير ولا تغني كلها عنه .
ثمن كل جزء منه ٢٥ قرشا ويطلب من مكتبة المنار بمصر

﴿ تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة موقظ الشرق وحكيم الاسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

وهو تاريخ الاصلاح والتجديد الديني والمدني الاسلام والشرق

تبلغ صفحات الاول منه زهاء ألف ومائة وخمسين صفحة وثمن النسخة منه ٥٠ قرشا

والثاني وفيه منشئات الاستاذ الامام لاصلاحية وثمنه د

والثالث وفيه التآبين والمراثي التي قيلت في الاسـ

وثمنه ٢٠ قرشا ويطلب من مكتبة المنار بمصر

